004

FIFA WORLD CUP RUSSIA 2018

دفاتر ممدوح حمادة

دفتر الغربة



دفاتر

ممدوح حمادة

دفتر الغربة

قصص قصيرة

دفتر الغربة



دفتر الغربة

قصص قصيرة

تأليف: ممدوح حمادة

التدقيق اللغوي: عمر الخولي

الإخراج: فايز علام

تصميم الغلاف: لؤي حازم

ISBN: 7 - 35 - 540 - 9933 - 978

الطبعة الأولى: 2018

دار ممدوح عدوان للنشر والتوزيع

سوريا - دمشق - ص ب: / 9838/

هاتف-فاكس: / 6133856/ 11 00963

جوال: 00971557195187

البريد الإلكتروني: addar@mamdouhadwan.net

الموقع الإلكتروني: addar.mamdouhadwan.net

twitter.com /AdwanPH fb.com /Adwan.Publishing.House

القصص

هدية رأس السنة

أكره اللصوص، وخاصة أولئك الذين يسرقونني شخصياً، كما أكره حمل الأكياس وأفضل ترك يديَّ حرتين، ولذلك تربطني علاقة مقدسة بحقيبة الكتف، أعلقها على كتفي وأنساها تماماً. وأكره المشافي والمستوصفات، وأشعر بالغثيان كلما دخلت إلى مثل هذه المؤسسات، وأكثر شيء أكرهه هناك هو الفحص الطبي الذي يفرضونه علينا كل عام، ولم أذهب إليه بشكل طوعي ولا مرة في حياتي.

في كل عام أتأخر عن الذهاب لإجراء الفحص في الموعد المحدد لذلك، آملاً أن يتجاهلني المستوصف فأتخلص من إجراء التحاليل، لكن المستوصف لا يتجاهلني، وتبدأ مشاكلي معه من نهاية الشهر السادس، حيث أعود في أحد أيام هذا الشهر فأجد

قصاصة معلقة على بابي: «عليك مراجعة المستوصف فوراً»، أتناول القصاصة، أقرأها ثم أمزقها، وأرمي بها في سلة القمامة. أشعر بالامتعاض قليلاً ولكنني أتابع حياتي بالشكل المعتاد، وأكاد أنسى موضوع الفحص الطبي، ولكنني بعد شهر بالتحديد أعود فأجد على بابي قصاصة أخرى كتب عليها العبارة نفسها: «عليك مراجعة المستوصف حالاً». أمزقها أيضاً وأرمي بها في سلة القمامة، وأتابع حياتي لعلهم في المستوصف ينسون أمري. ولكن العملية تتكرر بعد شهر أيضاً، أعود فأجد القصاصة وأمزقها، إلى أن يحل شهر كانون الأول الذي يحمل الرقم 12 من السنة، ولهذا أيضاً أكره الرقم 12، ففي الخامس عشر من هذا الشهر أعود فأجد على بابي القصاصة نفسها وقد أضيفت إليها عبارة تهديد: «عليك مراجعة المستوصف وإلا ستتخذ بحقك الإجراءات القانونية كافة». والإجراءات القانونية هذه تعني طردي من مسكن الطلبة، عندها لا يبقى أمامي مخرج فأذهب إلى المستوصف.

أحمل سجلي الصحي وأدخل العيادات تباعاً، يسألني الأطباء: «هل تعاني من شيء؟». فأجيب: «لا». يوقع الطبيب وأمضي أنا إلى عيادة أخرى للحصول على توقيع آخر، في قسم تحليل الدم يأخذون عينة من دمي للبحث داخلها عن فيروسي الإيدز والسفلس، منظر الدم لم يكن يزعجني، فقد تعرضت في حياتي لجراح كثيرة، وقد اعتدت على رؤية دمي ينزف. ولكن الذي كان

يبعث في نفسي شيئاً من القلق هي تلك الكمامات والقفازات التي كانت ترتديها ممرضات ذلك القسم فتولد لدى الشخص إحساساً بأنه موبوء، كما أن الانتظار عشرة أيام لمعرفة النتيجة كان يبعث على الاضطراب، خاصة إذا كان الإنسان قد ارتكب إثماً دون أن يتخذ إجراءات الأمان، ومع ذلك فإن الإزعاج الذي كانت تسببه تحاليل الدم لا يقارن أبداً مع الإزعاج الذي تسببه التحاليل الأخرى التي يجب على الشخص إحضارها صباح اليوم التالي على الريق في زجاجة وعلبة كبريت.

هذه التحاليل كانت مهينة، فبالإضافة إلى أنها تبعث على القرف، كان حملها إلى المستوصف مشكلة حقيقية، فإن وضعت البضاعة في حقيبة الدراسة أخشى أن تنفتح علبة الكبريت أو تندلق الزجاجة بين دفاتري وكتبي، ومجرد التفكير في أنني أحملها في جيبي يبعث على الاشمئزاز، لذلك كنت مضطراً إلى أن أحملها كل مرة في كيس منفرد أكره حمله كما قلت، وفي هذا العام أردت فعل الشيء نفسه، ولكنني لم أعثر على كيس؛ فمزقت صفحة من الجريدة وقمت بلف علبة الكبريت بها، ثم مزقت صفحة ثانية من الجريدة نفسها وقمت بلف الزجاجة، وضعت علبة الكبريت في حقيبة الدراسة وحملت الزجاجة لأنني خشيت أن تندلق، فقد كانت مغطاة بقطعة شفافة من كيس بلاستيكي ومربوطة حول الزجاجة بمطاطة، ماذا لو انقطعت المطاطة؟ سأحملها بيدي.

نزلت إلى الشارع أحمل بيدي الزجاجة الملفوفة بصفحة الجريدة، ولكن إحساساً تولد لديَّ بأن الناس جميعهم يعرفون ما الذي أحمله دفعني لأن أتوقف عند الكشك الذي كان على الرصيف كي أشتري كيساً أضع فيه الزجاجة وعلبة الكبريت.

لم يكن في الكشك أكياس بلاستيكية، كان هناك فقط أكياس ورقية بيضاء لامعة مخصصة لهدايا رأس السنة، وقد رسم على كل منها «بابا نويل» والحسناء التي ترافقه وقد كتب فوقهما «كل عام وأنتم بخير بمناسبة رأس السنة». اشتريت الكيس على الرغم من أن سعره مرتفع قليلاً ووضعت فيه الزجاجة ثم أخرجت علبة الكبريت من حقيبتي ووضعتها فيه أيضاً.

صعدت إلى الترامواي وجلست هناك على مقعد منفرد ووضعت الكيس في الممر قرب المقعد، وأخذت أنظر من النافذة أراقب الطريق ريثما أصل إلى المحطة القريبة من المستوصف.

كان الترامواي قد قطع ثلاث أو أربع محطات عندما شاهدت شخصاً يعبر الطريق مسرعاً إلى الجهة المقابلة، ينظر إلى الخلف وفي يده كيس يشبه كيسي، هكذا تصورت في بداية الأمر (كيس يشبه كيسي)، ولكن بعد دقائق، عندما اكتشفت أن الكيس الذي كان قربي في الممر غير موجود أدركت أن الكيس الذي كان في يد الرجل هو كيسي تحديداً.

شعرت بالانزعاج لأنني سأضطر إلى تكرار العملية، ولكن

ذلك اللص كان أول لص لا أشعر نحوه بكراهية، لقد شعرت نحوه بالشفقة، ماذا سيكون انطباعه عندما ينزع صفحتي الجريدة عن الزجاجة وعندما يفتح علبة الكبريت؟

الغداء الأسود

صديقي أبو غصن، من مشتى الحلو، ملك الشهامة، إن تكلم كانت الشهامة في نبرة حديثه، وإن صمت أوحى إليك صمته بالشهامة. إن عطس، عطس شهامة، حتى رجلاه إن لم يغسلهما طويلاً فأظن أنه ستصدر عنهما رائحة الشهامة، وطبعاً بصرف النظر عن الأشياء الأخرى التي لا مجال للحديث عنها هنا، هذا الرجل باختصار معجون على الشهامة، رضعها مع حليب أمه وفطم عليها كذلك.

إن صادفك في الباص فالويل لك إن فكرت في أن تدفع. إن شاهدك تحمل كيسين فعليك طوعاً أو عنوة أن تتخلى عن واحد منهما يساعدك في حمله، ويفضل أن يكون الأثقل، لأن ذلك يبعث في نفسه السعادة. إن تعثرت وشاهدك تعرج فسيحملك

على ظهره شئت أم أبيت. أشياء كثيرة لا تخطر لك في بال يفعلها أبو غصن بالفطرة.

مشكلة أبي غصن الوحيدة أنه دخل إلى البلد تهريباً، بكلام آخر؛ محروم من كل الأشياء التي تحتاج إلى إبراز الوثيقة الشخصية. ولكن ومن حسن الحظ فنحن في بلد لا تحتاج فيه أبداً إلى إبراز هويتك الشخصية، ولا يسألك عنها أحد أصلاً، ولذلك فإنه يمكن القول إن شيئاً لم يكن يزعج أبا غصن، فهو يعمل على سيخ الشاورما في فترة السهرة في مطعم لأحد السوريين الذين دخلوا أيضاً تهريباً وأصبحوا الآن يحلون ويربطون (هكذا يفكر هو، ولكن بيني وبينكم ولا تجيبوا له سيرة، كله على بعضه لا يساوي نصف فرنك)، ما علينا، موضوعنا الآن صديقي أبو غصن من المشتى، ملك الشهامة.

في الوقت الذي لا يعمل فيه أبو غصن، فهو إما يتسكع أو يذهب إلى صديقته ويتونس عندها، وإما يمضي نهاره باحثاً عن إذاعة دمشق لكي يسمع الأخبار، وكأن إذاعة دمشق انقلبت على حين غرة فصارت إذاعة مونتي كارلو أو إذاعة لندن، وقد كان رده على مثل هذا الكلام:

- «والله يا أخي بعرف... الله وكيلكن بعرف... بعرف إنه ما فيه خبر صح وأن الأخبار بايتة. بس يا أخي سبحان الله! ريحة من روايح هالوطن. أنا ما بيهمني الأخبار... أنا بصطهج بس إسمع

«سلام من الله عليكم ورحمة من لدنه وبركات». سبحان من خلقه يا أخي شلون صايغها هالمذيع هههههه»، يقهقه أبو غصن ثم يردف: «وبعدين شو بيقلك: كانت تلكم مقدمة النشرة وإليكموها بالتفصيل، بشرفك... كيف ما فتلت بتلاقي إذاعة بتتفزلك هالفزلكة؟».

ويسترسل أبو غصن في الشرح حتى يتهيأ لك أن نشرة الأخبار من إذاعة دمشق هي المحافظة الرابعة عشر في البلد، ولا يتوقف عن الحديث حول ذلك حتى ترسله إلى الجحيم هو والوطن وتصرخ في وجهه:

- «طالما أنت مولع كل هذا القدر... لماذا انقلعت من هناك؟».

فيبدأ بشرح مبرراته بإسهاب لا يقل عن إسهابه بخصوص الإذاعة، ولذلك فإن من يعرف أبا غصن لا يوجه إليه الأسئلة لكيلا يتورط بسماع الإجابات.

باختصار، لدى أبي غصن من المزايا ما يمكنك من الحديث عنه حتى صباح اليوم التالي إذا أردت أن تختصر، ولكنني اليوم سأتحدث عن يوم الأربعاء، وهو اليوم الذي اعتاد أبو غصن أن يذهب فيه إلى مطعم «أوزبكستان» - وهو مطعم افتتح منذ فترة وجيزة ويقدم مأكولات شرقية، يرتاده العرب على وجه الخصوص، ومن بينهم أبو غصن الذي اعتاد أن يطلب في كل مرة طبق «بلوف»، وهو طبق يحتوي على الأرز مع اللحم مع بعض البهارات الشرقية، وعلى حساء اسمه «لوقمان» ويحتوي على

المعكرونة ورب البندورة وبهارات مختلفة، وفي معظم الأحيان كان أبو غصن يثنّي، لأنه، والحق يقال، كان طعاماً لذيذاً من الصعب أن يقاوم الشخص رغبته في الحصول على وجبة ثانية.

في هذا اليوم الذي أتحدث عنه بالتحديد، كان أبو غصن يجلس وحيداً على الطاولة عندما دخلت، ولأنني لم أكن وحدي فقد اكتفيت بإلقاء التحية عليه وجلست إلى طاولة أخرى. ولكن وبسبب الإقبال الشديد على هذا المطعم، فإنه من النادر أن يبقى فيه مكان شاغر، واليوم ليس استثناء، فقد دخل شخص ملامحه شرقية وجلس إلى طاولة أبي غصن، الذي سرعان ما استنطقه وعلم أنه من سوريا أيضاً. حدست بذلك عندما شاهدت أبا غصن ينهض من خلف الطاولة ويمد جذعه من فوقها ويقبل شاربي الرجل الذي كانت ملامح وجهه تدل على أنه ليس في غاية السعادة لما يفعله أبو غصن، ولكنه تحمل الأمر ثم جلسا وبدآ بتبادل أطراف الحديث، بعد ذلك انشغلت عنهما في الحديث مع الأشخاص الذين كانوا برفقتي، ولم أنتبه إليهما مرة أخرى إلا بعد أن سمعت صرخة أبي غصن:

- «لا والله ما بتمد إيدك!».

نظرت إلى هناك فوجدت أبا غصن وقد تمدد بجذعه فوق الطاولة وأمسك بذراعي الشخص الآخر وقد ارتمى كرسيه على الأرض وتابع قائلاً بنبرة تهديد:

- «قسماً بالله بزعل منك».

الشخص الآخر على ما يبدو كان من النماذج القريبة جداً لنموذج أبي غصن، حيث أنه لم يرضخ لتهديد أبي غصن وحاول التخلص منه عبر فتله فوق الطاولة مما أدى لسقوط أبي غصن على الأرض، وبذلك أفسح له المجال لكي يمد يده إلى جيبه لإخراج النقود، إلا أن انتفاضة أبي غصن ووقوفه عن الأرض كانت أسرع من أن يتمكن الشخص الآخر من فعل شيء ما، حيث أمسك أبو غصن بيده، ومنعه من أن يخرجها من جيبه، بينما مد يده الأخرى إلى جيبه، ولكن الشخص الآخر لم يكن غافلاً عن ذلك فقد قام بدفع أبي غصن وحصره إلى الحائط وقبض على اليد التي حاول أبو غصن أن يمدها إلى جيبه، وفي الوقت نفسه تمكنت يده المحاصرة في جيبه من الخروج وفيها دستة من النقود التي سقطت لأنه لم يكن يتحكم بإمساكها جيداً بسبب يد أبي غصن الممسكة بيده، وعندما حاول أن ينحني لكي يلتقطها لم يتمكن أبو غصن من التغلب عليه، ولكنه أخذ يشده إلى الخلف ويدفع النقود برجله إلى مسافة أبعد مؤكداً:

- «قلتلك ما بتدفع... خلص».

الشخص الآخر أمسك برأس أبي غصن تحت إبطه ظناً منه أنه بهذا الشكل يتمكن من منع حركته، ومد يده مرة أخرى إلى جيبه لكي يخرج نقوداً من هناك، ولكن أخطأ الظن، ففي هذه الفترة

كان أبو غصن قد تمكن من مد يده بين فخذي الشخص الآخر ورفعه ثم مده على الطاولة وخلص رقبته من تحت إبط الرجل، وقال ظافراً:

- «قلتلك ما بتدفع يعني ما بتدفع».

باختصار، هذا أمر غير مألوف هنا، ولذلك فقد اتصل عمال المطعم بالشرطة منذ بداية المعركة، وعندما دخل رجال الشرطة الذين حضروا بسرعة كان الشخص الآخر يحاول أن يفلت من بين يدي أبي غصن الذي تشبث بحزامه في محاولة منه للسيطرة على منطقة الجيوب، وقد انكشفت نصف مؤخرته وكان النصف الآخر على وشك الخروج من البنطال لولا دخول الشرطة وإشهار أحدهم المسدس صارخاً:

- «وجهكما إلى الجدار! وجهكما إلى الجدار!».

الأمر الذي فاجأ أبا غصن والشخص الآخر الذي راح يرفع سرواله بينما كان أبو غصن يوضح:

- «لا شيء... لا شيء».

ولكن الأوان كان قد فات، فقد صرخ به الشرطي بنبرة أكثر حزماً، وكان بقية الشرطة قد أخرجوا مسدساتهم وأشهروها أيضاً:

- «وجهكما إلى الجدار! ارفعا أيديكما!».

فعل أبو غصن والشخص الآخر ذلك، بينما اقترب أحد رجال

الشرطة ووضع في يد كل منهما قيداً، ثم اقتادوهما إلى قسم الشرطة، وهو المكان الوحيد الذي يسألون فيه الشخص هنا عن بطاقته.

بعد ذلك لم أرَ أبا غصن هنا، وظهر مكانه شخص آخر على سيخ الشاورما، وبعد ستة أشهر رن جهاز هاتفي لأسمع على الطرف الآخر صوت أبي غصن الذي يحدثني بحرارة، شعرت بشيء من الفرح لسماع صوته مرة أخرى، وفكرت في الذهاب إليه، فسألته:

- «من أين تتكلم؟».

- «من وين يعني؟ من المشتى... عجبك على هالخازوق اللي أكلناه نحنا والزلمة؟! كمان هوي البقرة طلع ما معه إقامة».

العروس

عندما غادر أرض الوطن، كان قد اتخذ قراراً لم يبُحْ به لأحد، بأنه لن يعود أبداً، أو كما كان يقول: «لقد كسرت الجرة خلفي، بائع فجل عند الأجانب أشرف من أي شيء هنا». هكذا أيضاً كان يردد مبرراً قراره لنفسه أولاً، ولكن هذا لا يعني أن منير كان يكره وطنه، فالوطن كان يجري في عروقه، وكل حبة غبار حملها هواء الوطن لكي تستقر على بدنه كانت تتحول إلى خلية من خلايا جسمه، ونقصد هنا المعنى المجازي للكلمة، فمنير كان يستحم كثيراً ولم يكن يترك الغبار على بدنه أبداً. وعندما حزم حقيبته ليلة السفر وضع فيها علبتين، الهدف الوحيد منهما تذكيره بالوطن. العلبة الأولى كانت علبة فارغة لخاتم نسيها أحدهم عنده ذات يوم دون أن ينسى الخاتم طبعاً، وضع فيها منير قطعة بلاستيك صغيرة

حملتها ذات يوم من نافذة السرفيس مع الغبار زوبعة عندما كان السرفيس يعبر مخيم جرمانا، واستقرت في طرف عينه وتسببت في سكب الكثير من دموعه بغزارة قبل أن يخرجها من هناك طبيب العيون الذي لجأ إليه منير بعد شهر تقريباً حين لأدرك أنه لن يشفى تلقائياً. أما العلبة الثانية فكانت علبة فيها شريط كاسيت سجله من الراديو، ويحتوي على تلك المقطوعة التي تبث قبل افتتاح إذاعة دمشق وتقول: «دِنْ دِدِندن دندن دن دندن دن دن دندن». هكذا كان منير يرددها أحياناً عندما يبدي إعجابه بها لأحد ما.

العلبة التي فيها قطعة البلاستيك التي أدمت عينه، كان يحملها في جيبه دائماً، وكان كلما شده الشوق إلى الوطن يضع يده على جيبه متحسساً العلبة، وأحياناً يفتحها ويتأمل قطعة البلاستيك التي فيها وكأنه يتأمل خريطة الوطن، ثم يتشممها ويقفل العلبة ويتابع عمله على سيخ الشاورما في أحد مطاعم المدينة التي استقر فيها في بلاد الغربة.

سيمفونية إذاعة دمشق كان يستمع إليها كلما استيقظ تقريباً، وكان يحب أن يفعل ذلك على الشرفة في بلد لا يجلس فيه أحد على الشرفة التي يقتصر استخدامها على نشر الغسيل، وكان الجيران يتضايقون من ذلك، خاصة أن منير يفعل هذا في الصباح الباكر، ولكنهم تحملوا ذلك إكراماً لسعيد صديق منير الذي استقر عنده ريثما يقف على رجليه ويتمكن من استئجار بيت بمفرده؛

فسعيد منذ أن سكن في هذا المبنى لم يترك أحداً دون أن يساعده، فهو دهان عندما يلمح تقشراً في نافذة أحدهم يقترح عليه أن يدهنها له، ويفعل ذلك مجاناً بالطبع، وهو معلم تمديدات صحية، كل من لديه حنفية يشك في أمر جلدتها كان يتصل بسعيد الذي يحمل مفتاح الرنش ويتوجه إلى الشقة المطلوبة، وهو نجار وطيان ومعلم تمديدات كهربا وكل شيء، ولهذا تحديداً فقد كان الجيران يتحملون تجاوزات منير الذي حاول أحدهم أن يشرح له، ولكن منير الذي لا يعرف اللغة لم يفهم.

لم يكن سعيد يعرف بكل ما يجري، فهو يعمل عتالاً في وردية ليلية في محطة لقطارات البضائع، حيث أنه لقاء وردية الليل يتقاضى أجر وردية ونصف، وعندما يعود إلى البيت يكون منير قد غادر إلى العمل، ولكنه اليوم وبسبب الإرهاق، منح نفسه عطلة تجعل بدنه يرتاح قليلاً من ليالي العتالة الثقيلة، في البداية عندما أخذت المعزوفة (دِنْ دِدِندن دندن دن...) تتردد في رأسه، كان يظن أنه في منام، ولكن استمرار السيمفونية جعله يفتح عينيه، وعندما أدرك أن الصوت في شقته رفع رأسه، وعندما اكتشف أنه من الشرفة قفز كالملسوع وركض باتجاه الشرفة، ودفع منير الذي كان يحمل فنجان قهوته ويهم بالخروج إلى الشرفة مما أدى لسقوط فنجان القهوة على الأرض، ثم قام بنزع سلك آلة التسجيل من التيار وصرخ بمنير:

- «ما هذا الذي تفعله؟».

- «أتذكر الوطن».

- «ألا تستطيع تذكر الوطن في الداخل؟».

- «ما الفرق بالنسبة إليك».

- «هل تعرف ما الذي سيحصل إن اتصل أحدهم بالشرطة؟ سيقومون بترحلينا لأنه لا أنا ولا أنت نقيم بشكل شرعي هنا».

هنا أدرك منير فداحة جريمته، فهذا أكثر شيء كان يخشاه، حيث أنه بعد أن كسر الجرة خلفه، ثرثر كثيراً هنا، على اعتبار أنه أصبح يشعر بالأمان، ولا أحد هنا يطاله، ولهذا فقد أدرك حجم المصيبة في حال قاموا بترحيله، خاصة إذا كان أحد ما من أولاد البلد الشرفاء قد رفع فيه تقريراً، ولذلك فقد اعتذر من سعيد وبدا مكسوراً لدرجة جعلت سعيد يشعر نحوه بالشفقة ويسأله عن سبب استيقاظه مبكراً وعن عدم ذهابه إلى العمل، فأبلغه منير أنه لم يتمكن من النوم، وبطبيعة الحال سأله سعيد عن الأمر الذي يسبب له الأرق، فأبلغه منير بالخبر السعيد:

- «اليوم سأتأهل».

فما كان من سعيد إلا أن حضنه بقوة وهنأه على هذه الخطوة وعاتبه لأنه لم يخبره بذلك، فأبلغه منير أن السبب عدم لقائه به منذ فترة طويلة، ثم تساءل سعيد عن المحظوظة التي ستشاركه درب

حياته، فأبلغه منير أنها جاكلين جارتهم التي تسكن في الطابق الأعلى، وهنا قفز سعيد وصاح به غاضباً:

- «أيها الحقير، ألم تجد سوى جاكلين؟».

- «ما المشكلة؟».

- «لم أكن أدري أنك ستخطفها مني عندما عرفتك بها».

- «لم أكن أعرف أنك تحبها».

- «الآن عرفت».

- «فات الأوان، فقد قدمنا الأوراق. ثم لو كانت تحبك لما وافقت على الزواج بي».

باختصار، باءت كل محاولات سعيد بجعل منير يتراجع عن قراره، ولو أن سعيد لم يكن شخصاً حضارياً لطعن ذلك الخائن منير بين أضلاعه وجعله يخمد إلى الأبد، ولكن سعيد شخص متحضر، ولذلك فقد اكتفى بالحزن رداً على هذه الخيبة التي لم يكن يتوقعها من شخص آواه وأحسن إليه ليسرق له حبيبته في نهاية المطاف، من حضنه تقريباً.

قرع أحدهم الباب ففتحه منير ليجد أمامه جاكلين التي لم تسعفها كل عمليات الشد في إخفاء سنواتها السبعين، وربما الخمس والسبعين، وذكرته أن عليهما أن يذهبا إلى مكتب الزواج لتوقيع العقد، وكأنها كانت تخشى أن يكون قد نسي الأمر أو هرب

أو شيء من هذا القبيل، فانتعل منير حذاءه على عجل ودعاها لاحتساء فنجان قهوة في المقهى ريثما يحين موعد مكتب الزواج، وخرجا، ولكنه عاد مرة أخرى وتوجه إلى غرفة سعيد الذي كان ينام على بطنه وقد دفن وجهه في الوسادة حزناً، وقال له بنبرة لا تخلو من الاعتذار:

- «سعيد... لا تحزن... أقسم لك أنني بمجرد حصولي على الإقامة سأطلقها لك. لا حاجة لي فيه».

المجرود

- «رفيقكم صفوان في المشفى رقم اثنان وهو يريد أن يراكم».

هذا ما أخبر به الصوت الأنثوي أحمد عندما رفع سماعة الهاتف الذي أيقظه رنينه من نومه في الساعة التاسعة صباحاً.

الرفيق صفوان كان أكبر الرفاق سناً في المنظمة، ولكنه أقلهم عقلاً على الرغم من أنه يتميز برأس كبير، ويمكن القول بثقة إنه أكبر رأس في المنظمة، ما جعل صلعته تبدو مثل صحراء مترامية الأطراف، ومع ذلك شوهد ذات يوم وقد حلق شعره الخفيف الممتد على جانبي وقفا رأسه على الشفرة، وحين سئل عن السبب قال إنه فعل ذلك لكي يقوي شعره، ولكن الحقيقة التي انكشفت لاحقاً لم تكن كذلك أبداً؛ فقد كان السبب صديقته الصغيرة السن «صوفيا» التي لم تتجاوز الثامنة عشرة سوى بأشهر قليلة، والتي

كان صفوان متيماً بها، فقد حولته هي وصديقاتها إلى ألعوبة يتندرن بها، ففي هذه المرة جلبت صوفيا لصفوان صبغة شعر لكي يستر به شيبه، فوافق صفوان بسرور وفعل كما طلبت منه صوفيا، ثم خرج معها إلى حديقة قريبة مزدحمة من سكن الطلبة الذي يسكن فيه كانت قد دعته للنزهة فيها، ولم يعرف صفوان سبب النظرات المندهشة التي كان يوجهها المارة ورواد الحديقة إليه إلا عندما عاد إلى البيت ومر أمام المرآة التي خلف الباب وشاهد شعره الأزرق، فقام على الفور بحلاقته بالشفرة، ولم يبق هناك أي إشارة للصبغة سوى الصور التي التقطتها صوفيا له والتي وزعتها على رفيقاتها فيما بعد للتندر. لم يكن ذلك المقلب الوحيد الذي تعرض له صفوان من قبل صوفيا التي تركها أخيراً بعد أن اقتنع بشكل لا يقبل الشك بأنه لن يحظى منها حتى بقبلة على الخد.

في الساعة العاشرة كان أحمد في بهو المشفى رقم اثنان وما هي الا لحظات حتى ظهر صفوان من الداخل بلصاقة طبية كبيرة تغطي صلعته من الأعلى.

- «خير خير خير؟».

بادره أحمد مكرراً كلمة خير للدلالة على اهتمامه بالأمر.

- «الكلب خليل...».

قال صفوان وصمت لحظة ثم تابع: «كنا نتناقش في موضوع سياسي، فهوى بمجروده الحديدي على رأسي».

كان خليل الحالة الوحيدة في المدينة لكردي في حزب البعث، ويمكن القول إنه كان ملكاً أكثر من الملك، وكان موالياً متعصباً في منافحته عن السلطة التي يبدو من خلال حديثه عنها أنه يقدسها، بعكس صفوان الذي كان يمقت تلك السلطة ويحملها مسؤولية جميع الكوارث التي حلت بالبلد. وكان خليل يسكن في الغرفة المجاورة لغرفة صفوان في مسكن الطلبة، ومن باب التوفير كانا يتشاركان في وجبات الطعام، وحول مائدة الطعام، وخاصة على العشاء، كانت تدور نقاشاتهما الحامية الوطيس.

قرر الرفاق أن هذا الموضوع يعتبر قضية شخصية وأنه لا يمكنهم فعل شيء بخصوصه، وطلبوا من صفوان أن يكون حذراً في المرات القادمة وأن يحاول قدر الإمكان تجنب النقاش مع خليل الذي لا يختلف بشيء عن ذنب الكلب الأعوج الذي لن يصلحه أي قالب، وإلا فكيف قبل على نفسه وهو الكردي أن يكون عضواً عاملاً في حزب البعث العربي الاشتراكي؟ ووعد صفوان بأن يفعل ذلك، ولكن لم تمضِ ثلاثة أشهر حتى كان الصوت ينبعث من الهاتف مرة أخرى:

- «رفيقكم صفوان في المشفى رقم اثنان وهو يريد أن يراكم».

وفي العاشرة تماماً كان أحمد مزروعاً في بهو المشفى، وما هي إلا لحظات حتى أطل صفوان بصلعته المضمدة:

- «اله اله اله...».

قال أحمد لكي يعبّر عن أسفه، ثم أضاف مستفسراً:

- «خير؟».

- «الكلب خليل...».

قال صفوان ثم تابع:

- «احتدم النقاش بيننا فهوى على رأسي بالمجرود الحديدي».

في هذه المرة أيضاً لم يتدخل الرفاق الذين يعرفون سلفاً أن وساطتهم لن تجدي نفعاً، وذلك بسبب الكراهية التي يكنها خليل لحزبهم، وعلى العموم فقد كان ذلك شعوراً متبادلاً بين الطرفين.

تكررت العملية عدة مرات في غضون أشهر، ما دفع الرفاق إلى التفكير في طريقة يحمون فيها صلعة رفيقهم صفوان من مجرود خليل، فذهب وفد منهم في محاولة لمحاورة خليل بالموضوع. لم يظهر خليل كراهيته لهم، فقد استقبلهم بحفاوة وأعرب لهم أنه أيضاً كان ينوي التحدث معهم ولكنهم سبقوه. عاتبه الرفاق على سلوكه مع صفوان، وذكروه بأنهما أبناء وطن واحد في الغربة، ومهما بلغت الخلافات السياسية حدة فإنها يجب ألا تصل إلى حد الضرب بالمجرود على الرأس، وهنا قاطع خليل الشخص المتحدث وسأله بعصبية واضحة:

- «إذا بصق شخص في وجهك، أتضربه بالمجرود أم لا تضربه؟ أجبني، إذا بصق شخص في وجهك، أتضربه بالمجرود

أم لا؟ الحمد لله أنه لا يوجد كلاشنكوف، فلو كان عندي كلاشنكوف كنت أفرغت مخزناً كاملاً ثلاثين طلقة في رأسه، وما كنت لأكتفي بالمجرود».

صمت الرفاق عندما اكتشفوا أن لدى خليل مبرراته لفعل ذلك، وعندما سألوا صفوان عن صحة ذلك اعترف بالحقيقة محرجاً وقال مبرراً:

- «يا أخي لا أستطيع تمالك نفسي عندما يصر أنه لا يوجد معتقلين سياسيين... وأخي الذي يقبع في السجن منذ عشر سنين ماذا يفعل هناك؟ هل يقضي فترة استجمام أم أنه معتقل سياسي؟».

أدرك الرفاق أن لا حل للموضوع، فخليل سيبقى ينافق وصفوان سيظل يبصق في وجهه فيهوي خليل بالمجرود على رأسه، ثم بعد خروجه من المشفى سيقبل كلا الطرفين شاربي بعضهما بعضاً ويجلسان إلى مائدة الطعام، وبعد أن يملأ كل بطنه سيشربان الشاي وينفتح النقاش من جديد، ولذلك وضع الرفاق خطة محكمة تؤدي إلى اختفاء مجرود خليل الحديدي وشراء مجرود بلاستيكي من ميزانية المنظمة وتقديمه هدية إلى خليل حفاظاً على صلعة الرفيق صفوان.

سفلس

في أواسط الثمانينيات من القرن الماضي، ومع بداية انتشار مرض الإيدز بشكل واسع في أصقاع مختلفة من العالم، بدأت في المكان الذي كنت فيه آنذاك حملة شعواء لمكافحة الإيدز بدأتها الصحافة بشكل مكثف، لدرجة أصبح معها كل شخص يشعر أنه مريض بالإيدز، ومن ضمن هذه الحملة فُرض إجراء فحص تحليل دم على كل طالب للتأكد من خلوه من هذا الفيروس الخطير، وبما أن الأعداد التي يجب أن تجري الفحص كانت هائلة، فقد تم تحديد دور لمختلف المؤسسات التعليمية لكي يقوم طلابها بإجراء التحاليل خلاله، وكان دور جامعتنا في نهاية القائمة تقريباً، ولذلك سمحت لنفسي بالسفر إلى مدينة أخرى لمدة أسبوع، ونزلت في غرفة في الفندق كان فيها شخص آخر

أتضح عندما عاد من الخارج أنه من الكونغو، والتي، وبحسب الحملة الصحفية لمواجهة الإيدز، البلد الذي يحمل واحد فيه من كل اثنين فيروس الإيدز. ومع أن ذلك شكل بالنسبة إلي مفاجأة غير سارة على الإطلاق، إلا أنني تحاملت على نفسي وقررت ألا أفكر في الموضوع، لأن لا شيء يبعث على الخوف، فالإيدز والحمد لله لا ينتقل في الهواء، على ذمة الصحافة طبعاً، خاصة وأنني أمضي كل الوقت مع أصدقائي في تلك المدينة، وأعود إلى الفندق للنوم فقط. في اليوم التالي سألني شريكي في الغرفة، الذي من الكونغو، إن كان لدي شفرة حلاقة إضافية، فقلت له إنه لا يوجد لدي سوى شفرة واحدة، وكان الشفرات في ذلك الوقت بضاعة نادرة تباع في أماكن محدودة للغاية، يبدو أنه لم يعثر عليها. ثم توجهت كالعادة إلى أصدقائي وأمضيت النهار معهم، ثم عدت إلى الفندق في ساعة متأخرة ليلاً وكان الأفريقي نائماً. في الصباح استيقظ قبلي، وعندما استيقظت لم يكن في الغرفة، فقد توجه إلى المطعم في الطابق الأسفل لتناول الفطور. فقمت أنا بحلاقة ذقني لكي أذهب أيضاً إلى هناك وأتناول فطوري، وبعد أن حلقت وقمت ببخ الكولونيا، بدلت ثياب النوم بثياب الخروج وكنت أشد رباطات حذائي عندما دخل الأفريقي، وعندما رفعت رأسي كردة فعل على صوت الباب الذي انفتح، كانت ذقنه الحليقة أول ما وقعت عيناي عليه، فأصبت بارتباك بعض الشيء، لأنه على

حد ما أذكر لم أرَ على رف المغسلة في الغرفة سوى محفظتي أنا التي فيها فرشاتي ومعجون أسناني وعدة حلاقتي، فإن كان قد حلق ذقنه فبأي شفرة حلقها؟ ولكي أتثبت من الموضوع وقفت وألقيت نظرة جانبية فلم أرَ غير أغراضي، فكرت في أنه ربما يكون قد رمى بشفرته التي استخدمها في سلة القمامة، نظرت إلى هناك فلم أر شفرة بين الأشياء القليلة هنا. تسرب الشك إلى نفسي في أنه استخدم شفرتي، ومن باب العثور على أمل ما، يبعث في نفسي الطمأنينة، فقد تابعت مراقبته دون أن يشعر، لعلني أراه يحلق وفي يده آلة حلاقة غير آلتي، لكنه لم يحلق ذقنه مرة أخرى، وبدأ يتكون لدي شعور بأنه 99,99% قد استخدم ماكينة حلاقتي، وبالتالي فقد أخذ يتولد لدي شعور بأن فيروس الإيدز بدأ يسبح بين كريات دمي، واعتبرت ترك محفظة الأشياء الشخصية على رف المغسلة أكبر حماقة ارتكبتها في حياتي. ومن ناحية أخرى، خشيت أن أسأله عما إذا كان قد فعل ذلك، معتبراً أن مثل هذا السؤال من قبلي يفتقر إلى اللباقة في التعامل مع شخص غريب، ثم أنني حتى في حال سألته، فما الذي يضمن لي بأنه سيقول الحقيقة؟ فإن قال لي إنه اشترى شفرة حلاقة فهل سألزمه بأن يريني إياها؟ بالطبع لا.

عدت إلى مدينتي والقلق يسيطر عليَّ بشكل كامل، فما الذي يمنع أن يكون هذا الأفريقي واحداً من نصف السكان الذين يحملون فيروس الإيدز في الكونغو؟ دخلت إلى غرفتي في

مسكن الطلبة وكنت وحيداً فيها لأن الجميع كانوا قد سافروا بسبب العطلة، كانت تنتابني قشعريرة أحياناً، ويسيطر عليَّ اكتئاب عندما كنت أتخيل ما الذي سيحل بي بسبب حماقة صغيرة سببها الكسل والإهمال، لا أكثر ولا أقل. فما الذي يمنعني من إخفاء أشيائي الشخصية في الخزانة أو في الحقيبة التي تحت السرير، لم تكن لدي رغبة في الأكل أو للشراب أو أي شيء آخر، كنت أتمنى أن يحدث لي شيء يوقف تقدم حياتي باتجاه تلك الدقيقة التي يخبرونني فيها في المستوصف بأنني مصاب بالمرض. وللخروج من هذه الحالة السوداوية، فقد توجهت إلى مسكن الطلبة في معهد الثقافة، حيث لديَّ الكثير من الأصدقاء هناك، لم أطلعهم على مخاوفي لكيلا يصاب أحد بالنفور مني، وعلى الرغم من أنني بعد ما يقارب عشر برتيات شدة قد تراجعت سوداويتي كثيراً، إلا أن القلق ظل معشْشاً في نفسي. وفي صباح اليوم التالي استيقظت نشطاً وحلقت ذقني مستخدما شفرة جديدة، ولكن بعد أن وضعتها في آلة حلاقة صديقي سبيع التي عقمتها بالطبع كما نفعل عادة عندما نستخدم أشياء بعضنا البعض، باختصار بعد عدة أيام جاء دور معهد الثقافة في إجراء التحاليل، وذهب سبيع وفعل ذلك، أما أنا فقد عدت إلى مسكني وعاد القلق والاكتئاب تدريجياً يتسللان إلى نفسي حتى سيطرا عليها كلياً، خاصة عندما سمعت أن التعقيم المعتاد لا يفيد في حالة الإيدز، وأن القضاء على الفيروس لا يتم

إلا بغلي الأشياء الملوثة لمدة تزيد على عشرين دقيقة. تفاقمت الحالة معي حتى أصبحت لا تطاق، ولكن في أحد الأيام حدث اختراق في هذه الحالة، فقد تذكرت أنني استخدمت شفرة سبيع في معهد الثقافة، وأن التحاليل أثبتت خلوه من المرض، فتعاملت مع هذا الموضوع كما يتعامل الغريق مع القشة، فلو أنني كنت مريضاً فإن المرض كان لينتقل إليه عبر آلة الحلاقة، وبما أن سبيع سليم، فأنا سليم. وهكذا تحايلت على نفسي وطردت الغمامة السوداء عن عيني وذهبت إلى معهد الثقافة والفرح يسيطر عليَّ، ولكنني ما إن دخلت غرفة صديقي حت أظهر لي قصاصة كتب عليها (لمراجعة الغرفة 601) فسألته:

- «وما المشكلة؟ دائماً يطلبون المراجعة في المستوصف».

فقال بنبرة لا داعي لوصفها:

- «هذه غرفة تحاليل الإيدز».

لم أشعر بالصدمة، بل شعرت بهراوة معدنية نزلت على رأسي، فقد اتضحت الأمور بالنسبة إليَّ، أنا الذي نقل إليه العدوى عن طريق آلة الحلاقة، أنا لم أكن أحمق فقط حين تركت آلة الحلاقة على رف المغسلة في الفندق، بل أنا مجرم أيضاً لأنني استخدمت آلة حلاقة صديقي، وإلى شعوري بالقلق أضيف شعور بالذنب وتأنيب الضمير.

انتظرت صديقي حتى يعود من هناك لأعرف ما هي المشكلة،

ويمكن القول إن فصول المأساة الحقيقية قد بدأت، فقد أخبرنا صديقي بأنهم جعلوه يوقع على تعهد فيه بنود كثيرة تتعلق بالجنس والحقن بالمخدرات وغير ذلك من التفاصيل التي قد تسبب في انتقال الفيروس إلى الآخرين، وبالطبع فإنه لم يبق أحد من الحاضرين تقريباً عندما كان قد وصل إلى نهاية الحديث، أنا وهو والشخصين اللذين بقيا أخذنا نحلل من أين يمكن أن يكون المرض قد انتقل إليه، سألوه عن صديقته وإن كان لها علاقات، فأكد ثقته الكاملة بها. وضعت احتمالات كثيرة، فربما كان طبيب الأسنان لم يعقم أدواته أو غير ذلك، كل الاحتمالات التي يمكن تخيلها ذكرت ما عدا احتمال واحد هو الذي يحمل في طياته الحقيقة، آلة الحلاقة التي استخدمتها أنا.

تعرض صديقي بعد ذلك لحجر صحي طوعي، فقد توقف الجميع تقريباً عن زيارته باستثناء عدة أشخاص وأنا، وحتى زياراتنا له لم تكن طبيعية، فقد كنا متوترين دائماً، وكنا نشعر، أنا على الأقل، بأن كل شيء في غرفته موبوء، حتى أنني كنت أجلس على طرف الكرسي. وأكثر شيء كنت أمقته هو حين يصر على شرب الشاي، كنت أشعر بالخجل من تعقيم يدي بعد مصافحته، ولكنني كنت أفرط في ذلك عند عودتي إلى بيتي، كنا لا نعرف شيئاً عن المرض سوى أنه فتاك.

عندما جاء دور جامعتنا، ذهبت إلى المخبر في المستوصف

من أجل إجراء التحاليل، كالشاة الذاهبة إلى الذبح. ولكن المفاجأة السارة كانت بعد أسبوعين، حيث تبين أنني سليم ولا أعاني من شيء، لا من الايدز ولا من الأمراض الجنسية الأخرى التي يحتوي عليها التحليل. وبطبيعة الحال، فقد تابعت زيارة صديقي المصاب، ولكن من باب التعاطف والدعم المعنوي، فقد كان لدينا خوف من أن يفعل بنفسه شيئاً، وظلت الخشية سارية المفعول بل تعمقت أكثر، فما الذي يضمن أن الأيدز لا ينتقل عبر الكؤوس والصحون والملاعق؟ ولكن صديقي الذي يتعرض للمقاطعة كان يشعر عندما يزوره أحدهم بالفرح لدرجة أنه كان مستعداً معها لأن يقدم روحه وليس فقط لأن يقوم بواجبات الضيافة، ولم تكن تنفع معه توسلاتنا بعدم إزعاج نفسه، فكنا نشرب الشاي أو القهوة بدون شهية، ونحاول قدر الإمكان ملامسة الكأس برؤوس شفاهنا بأقل قدر ممكن، ولو كان شرب الشاي "زرنقة" أمراً ممكناً لفعلنا ذلك.

المهم، في آخر مرة ذهبت مع صديقي من أجل الحصول على نتيجة التحليل الثالث الذي أجري في مخبر خاص أكثر جاهزية، فتبين أنه معافى ولا يعاني من الإيدز، فرحتي بالطبع كانت كبيرة لأن صديقي كان بخير، أما فرحته فأعتقد أنها لا توصف، ومما أعطى نكهة لهذه الفرحة وأضاف عليها المرح خروج شخص أفريقي من الغرفة 601 كان من بين الذين تم استدعائهم للشك في

وجود الإصابة لديهم، خروجه من تلك الغرفة يكبر ويهلل فرحاً، فسأله صديقي:

- «كل شيء على ما يرام؟».

فأجابه الأفريقي والفرح يخرج من مسامات وجهه:

- «الحمد لله... سفلس!».

طنجرة الفيتنامي

مسكن الطلبة كان فارغاً تقريباً في العطلة الصيفية، لم يبق فيه من العرب غير أولئك الذين ليس معهم نقود ثمناً لبطاقة الطائرة إلى الوطن، وهم عبارة عن ثلاثة سوريين ولبناني وفلسطيني. نحن السوريون إضافة لعدم وجود النقود ثمن البطاقة لم يكن لدينا جوازات سفر أيضاً، فقد خرجنا فيما يشبه التهريب، حصلنا على جوازات سفر لستة أشهر يسمح لنا السفر بها إلى البلاد العربية فقط، ولذلك اضطررنا أنا والسوري الآخر إلى السفر عن طريق الجزائر، أما فتحي (السوري الثالث) فهو في جواز السفر ليس فتحي وإنما ابراهيم، وإبراهيم هو شخص لبناني ميت حصل فتحي على جوازه بطريقة ما ليخرج به، لأن فتحي كردي سوري بدون جنسية، ولذلك فقد خرج بجواز سفر لبناني من بيروت.

وللحقيقة، فنحن كنا من ذوي الجيوب الفارغة ليس في وقت العطلة الصيفية فقط، وإنما العام كله بشهوره الاثني عشر، غير أننا في أوقات الدوام كنا نستدين من الآخرين، أما في العطلة فكنا كما لو أننا في الصحراء، لا أحد غيرنا في مسكن الطلبة، سوى طالب فيتنامي نجهل سبب بقائه.

الكوبيكات القليلة التي كانت معنا أشرفت على النفاد، لم يبق منها سوى عشرة كوبيكات في جيب هاشم، وهي تكفيه لكي يركب المترو ذهاباً وإياباً، وهكذا توجه إلى المترو الذي كان يفترض أن يقله إلى آخر محطة يسير بعدها مدة ربع ساعة فيصل إلى صديق لبناني له هناك، حيث يستدين منه مبلغاً يكفينا لأيام نكون خلالها قد عثرنا على مخرج ما، ولكن المصائب وكأنما تفرغت لنا وقررت أن تجتمع علينا، حيث أن جهاز صرف الكوبيكات في المترو ابتلع العشرة كوبيكات التي وضعها فيه هاشم ثم بصق في وجهه ولم ينزل له من الأسفل قطعتي الخمسة كوبيكات المفترض أن ينزلهما، وهكذا بعد أن أكلت الآلة كوبيكاته العشرة، عاد هاشم بجيبه الفارغ الذي أصبح يشبه جيوبنا. ما الذي يمكن أن نفعله الآن؟ سؤال تبادر إلى ذهن كل منا في هذه اللحظة، ولكن ولأن الجميع يعرفون أنه سؤال غبي لا إجابة له، فإن أحداً لم يطرحه وبقينا صامتين لفترة طويلة، ولكن الجوع اشتد بعد الظهر، فاقترح ناصر، الذي كنت أشك بعد كل أزمة تعصف بنا أنه يوماً ما كان حرامياً،

اقترح أن نذهب إلى مطعم الخدمة الذاتية في الطابق الأرضي من السكن، فيقوم كل منا بوضع قطع من الخبز في جيبه ثم نتصنع أننا غيرنا رأينا ونخرج. وهكذا فعلنا. فخرج بعضنا من هناك بقطعة من الخبز، وبعضنا بقطعتين، أما ناصر فسحب من جيبه بعد أن خرجنا من هناك بيضتين مسلوقتين قسمهما على الجميع، في اليوم التالي فعلنا الشيء نفسه في الصباح، لكن في هذه المرة وبعد أن اكتسبنا خبرة، خرج كل منا ببيضة مسلوقة في جيبه، أما ناصر فإضافة إلى ذلك كان في جيبه قطعة من الجبن، وكما يكتسب اللص تجربته في الممارسة العملية، تكتسب الضحية خبرة كذلك، فبعد الظهر ما إن شاهدتنا المحاسبة ندخل حتى نهضت من مكانها وهرعت باتجاهنا طاردة إيانا شر طردة. انكشف أمرنا إذاً، ويمكننا بكل بساطة أن ننسى هذا المطعم.

بات كل منا ليلته تلك بمعدة خاوية، وبينما كنا نلعب بورق الشدة كان ناصر مستلقياً على ظهره فوق السرير وقد شبك ذراعيه خلف رأسه ويحدق في السقف المطلي بالكلس الأبيض بعينين حزينتين، ثم فجأة قال بنبرة لا تخلو من الإيحاء بما يجب فعله لاحقاً:

- «شباب... اليوم شاهدت الفيتنامي يضع طنجرة على السخان في المطبخ».

- «كل يوم يفعل ذلك».

أكد فتحي، لم يكن هناك داع لكي يكمل ناصر ما كان يفكر فيه، رمينا ورق الشدة جانبا وتحلقنا حول الطاولة لرسم مخطط من أجل سرقة الطنجرة دون أن يفتضح أمرنا، فإن حصل ذلك لا سمح الله ووصلت الأمور إلى الشرطة فهي سرقة، وإن أشفقوا علينا وغضوا الطرف فهي فضيحة، ولذلك فقد كان الاقتراح على الشكل التالي، نغادر نحن الخمسة السكن على مرأى من الفيتنامي ومن العجوز المناوبة في مدخل السكن، ثم يعود اثنان من الباب الخلفي تسللاً ويراقبان الفيتنامي دون أن يشعر، وعند أول مغادرة للمطبخ يدخل واحد من الاثنين يختطف الطنجرة ويعود فيضعها على الطاولة في الغرفة ويتركها هناك ويخرج بسرعة الريح فيقوم الثاني بإغلاق الباب بسرعة ويختفيان من الباب الخلفي كما دخلا. وهكذا بقينا حتى الفجر نفكر في ما الذي ستحتوي عليه طنجرة الفيتنامي في الصباح. أحدهم قال إنه شاهد الفيتنامي مرة يطبخ الأرز، والثاني قال إنه شاهده مرة يسلق دجاجة، بينما قال فتحي إنه شاهده مرة يسلق كراعيب خنزير، فما كان من ناصر إلا أن قال له:

- «خليك ساكت يا خرا ضروري تحكي يعني!».

في اليوم التالي نفذت الخطة كما رُسمت تماماً، وابتعدنا عن سكن الطلبة لكيلا يرانا الفيتنامي إن أطل من النافذة، ومررنا في أثناء ابتعادنا من خلف مطعم الخدمة الذاتية، وشاهدنا عاملة التنظيف تفرغ في برميل هناك فضلات المطعم التي كان بينها قطع من الخبز

تكفي لإطعامنا جميعاً، الصيف كله، وشعرنا بالغبن بعض الشيء لأننا لا نجد ما نأكله وكل هذه الخيرات ترمى في القمامة. ولكن من قال إننا يمكن أن نغير العالم الآن؟ تابعنا طريقنا وبقينا خارج السكن حتى غياب الشمس تقريباً، ثم عدنا وكل منا معدته تمني النفس بما لذ من الطعام داخل طنجرة الفيتنامي، لأن فتحي الذي قام بعملية اختطاف الطنجرة، لشدة خوفه في أثناء عملية السطو، لم يفكر في رفع الغطاء ليرى ما في داخلها، وضعها واختفى من الغرفة وقلبه يخفق بشدة.

دخلنا إلى الغرفة وأغلقنا الباب بسرعة، وتساءل هاشم:

- «أين ناصر؟».

اختفى ناصر في الطريق دون أن يشعر به أحد، وهذا أمر عادي، ولذلك لم يعر أحد لسؤال هاشم اهتماماً، وامتدت أيدي الجميع في الوقت نفسه تقريباً لرفع غطاء طنجرة الفيتنامي. الخيبة ارتسمت أيضاً على وجوه الجميع، فالطنجرة لم يكن فيها سوى ماء تلمع على وجهه بعض بقع الزفر.

- «على الأغلب، فإن هذا الزفر هو من الماء الذي طبخ فيه الفيتنامي أمس دجاجته».

قال فتحي، فتناول هاشم ملعقة وتناول رشفة من الطنجرة وقال مؤكداً:

- «على الأغلب».

وهنا دخل ناصر وفي يده كيس بلاستيكي وتساءل قلقاً:

- «هل تركتم لي شيئاً؟».

فطمأناه أننا لم نبدأ بعد، لأن ما في الطنجرة ليس سوى زوم دجاجة الأمس، فأفرغ ناصر محتويات كيسه البلاستيكي على الطاولة، وتجمعت كومة من قطع الخبز الأبيض وقطع الخبز الأسود بعضها كاملة وبعضها ليس كذلك، فوزعنا الكؤوس على الطاولة وسكبنا مرق دجاجة الفيتنامي في الكؤوس ثم امتدت الأيدي إلى قطع الخبز البيضاء والسوداء لكي نبدأ الطعام، ولكن فتحي كعادته يطرح جميع أسئلته في غير أوانها، حيث توجه إلى ناصر قائلاً:

- «من وين جبت الخبز؟».

فصرخ به الجميع:

- «خليك ساكت يا خرا! ضروري تسأل؟».

- «شو سر يعني؟».

امتعض فتحي وشاهد الجميع علامات حزن تظهر في عينيه بما يوحي أنه ربما يمتنع عن الطعام تعبيراً عن احتجاجه على الطريقة السيئة التي يتم التحدث بها معه، فرد عليه ناصر:

- «لا... ليس سراً. نمت مع العجوز التي تعمل في المطعم فكافأتني بالخبز. غير تخلينا نفضح المرا يعني؟».

قال ناصر غاضباً وصدقناه جميعاً، وأعتقد أنه هو أيضاً صدق نفسه، والتهمنا بنهم جميع قطع الخبز السوداء والبيضاء، الكاملة منها والناقصة، ولم نجد اختلافاً في الطعم بينها وبين قطع الخبز الأخرى، كما شربنا مرق دجاجة الفيتنامي دون أن نترك منه نقطة واحدة، لقد كانت وجبة لذيذة فعلاً.

في صباح اليوم التالي وجد الفيتنامي طنجرته التي ملأها بالماء ووضعها على النار لكي ينظفها من الزفر العالق بها، فأخذها دون أن يقول شيئاً، ولكنه منذ ذلك اليوم لم يعد يغادر المطبخ دون أن يأخذ كل أشيائه معه.

تفو على أصلِكْ

عندما وصلت أمس إلى هذه المدينة الباردة التي يعرف عنها أن ليس فيها أجانب، شعرت في اليوم الأول بوحشة كبيرة، خاصة أن المدينة قد خلدت للنوم في الساعة الثامنة تقريباً، والشوارع بدت شبه خالية نحو الساعة السادسة، وقبل ذلك كان الظلام قد بدأ يحل في الرابعة بعد الظهر تقريباً. كما لفت نظري أنني لم أشاهد شخصاً يبتسم، فوجوه الجميع كانت مكفهرة. بعد الثامنة عم صمت ثقيل ولم أعد أسمع وقع تلك الخطوات المتفرقة التي كانت تعبر في الممر بين حين وآخر، وعلى إثر ذلك الصمت الثقيل بدت المدينة أشبه بالمقبرة. في اليوم التالي عندما خرجت، وكان يوم السبت، توجهت إلى السوبر ماركت القريب، وكانت الحركة على أبوابه وفيه تبعث على الأنس والطمأنينة. لم أكن أتوقع أبداً أن أسمع

كلاماً باللغة العربية، وباللهجة السورية تحديداً، وآخر ما كنت أتوقعه أن يكون هذا الكلام سيل من الشتائم البذيئة (من الزنار فما دون) يختمه الشاتم في كل مرة ببصقة ترافقها عبارة «تفو على أصلِكْ». هذا بالذات هو ما حصل عندما كنت أملأ الأغراض التي اشتريتها من السوبر ماركت في حقيبة الكتف، فقد سمعت خلفي أحدهم يشتم أخت إحداهن بشتيمة يعرفها الجميع ولا داعي لذكرها هنا، مراعاة للذوق العام، وسأكتفي بترجمتها كما تترجم الشتيمة الإنكليزية الشهيرة المشابهة لهذه الشتيمة "تباً".

التفتُّ إلى جهة الصوت لكي أتعرف على تلك التعيسة التي يقول ابن البلد "تباً" لأختها، فلم يكن هناك سوى ستة إلى سبعة أشخاص بينهم عتال يحمل بضاعة على عربة يجرها ويدخل بها إلى المستودع، ورجل ستيني يقف في الركن ويحاول تدكيك علبة في حقيبته، كانت ملامح الجميع أوروبية، ولذلك لم يكن من السهل عليَّ التكهُّن بمصدرها فعدت لمتابعة وضع أغراضي في الحقيبة، ولم تمض ثوان حتى دوت الشتيمة من جديد لأخت إحداهن، وزاد على شتيمته الأولى بلعن أبيها ووصفه بالكلب، وختم شتيمته بالعبارة نفسها: "تفو على أصلك!"، التفتُّ مجدداً باتجاه الصوت، ووجدت إضافة إلى عمال السوبر ماركت ذلك الرجل الستيني نفسه وفي يده العلبة التي كان يحاول تدكيكها في الحقيبة، كان يبدو غاضباً وفاقداً للأمل، ويحاول تمالك أعصابه،

ما أكد لي أن الشتائم صادرة عنه، وبعد أن تهيأ له أنه تمالكها، عاد ليضع العلبة في الحقيبة، وعدت أنا لمتابعة العمل نفسه، ولكن في هذه المرة سمعت الشتيمة تخرج على شكل صرخة لأخت المجهولة التي لم أتمكن من رؤيتها إلى الآن، فالتفتُّ إلى الخلف بسرعة وشاهدت الستيني يضرب العلبة التي كانت في يده بالأرض فتنفتح وتتدحرج منها لفافات السوشي، وهي أكلة يابانية كنت أسميها أنا "يبرق سمك"، ثم اتكأ بيده على الطاولة التي وضع حقيبته فوقها وتنهد محاولاً أن يعود إلى رشده، ويقول بالروسية "اللعنة!". فأدركت أنه ليس الرجل المقصود. ثم تمكن العتال الذي كان يواجه صعوبة في إخراج عربته من المستودع من إخراج عربته والتحدث بشيء ما مع من في داخل المستودع، فخرجت عجوز معها مكنسة وأخذت تكنس لفافات السوشي.

وقفت أمام السوبر ماركت متصنعاً أني أنتظر أحداً، وأخذت أدندن بأغنية "يا مال الشام يلا يا مالي" بصوت أتقصد إسماعه لكل رجل يمر بالقرب مني من الخارجين من السوبر ماركت، لعلِّي ألفت نظر ابن البلد وأتعرف إليه فكان بعضهم يلقي إلي نظرة مستغربة والبعض لا يلقي إليَّ بالاً، والكل يتابع سيره. وعندما طال الوقت ولم يلتفت إليَّ أحد، اعتقدت أنه مر ولا يريد أن يتعرف إليَّ، فذهبت إلى الفندق وكنت قد اشتريت زجاجة فودكا لعلها تساعدني في النوم دون أن أتقلب عدة ساعات مصارعاً الأرق.

في اليوم التالي أسرعت في إنجاز الفروض الصباحية كافة، وتوجهت إلى السوبر ماركت لعلي أعثر على ذلك الرجل فيؤنس وحدتي التي ستمتد إلى شهر هنا، وبالفعل كنت من بين أوائل الزبائن الذين دخلوا إلى السوبر ماركت بعد أن فتحته من الداخل عاملة هناك، تجولت ببطء بين الجدران متأملاً الرفوف المختلفة، وكنت أقرأ كل ما هو مكتوب على البضائع، حتى لم يبقَ علبة سردين لم أتأملها أو كيس أرز أو سكر لم أقرأ ما هو مكتوب عليه، ومضى أكثر من ساعتين تقريباً قبل أن تصدح تلك الشتيمة من مكان ما، فنظرت بسرعة إلى مصدر الصوت، ولكن الجدران كانت تحجب عني الأشخاص الآخرين، فخرجت بسرعة باتجاه المخرج، وقررت أنني اليوم لن أنصرف قبل أن أقبض على ابن البلد الغاضب دائماً هذا.

وقفت أمام المخرج، وكنت أتحرش بكل خارج من هناك، إما بقول عبارة ما بالعربية، أو بإلقاء التحية باللهجة السورية، أو بدندنة أغنية ما. وأمضيت النهار كله تقريباً أمام المحل متحملاً ذلك الصقيع محاولاً التغلب عليه بفناجين من الشاي والقهوة من الكافيتريا التي خلف الباب، مستغلاً فترات انقطاع الرجل، ثم بأقداح الفودكا، حتى حلت الساعة الخامسة تقريباً، فخرج رجل وأنا أجرع قدح الفودكا، فوجه إليَّ نظرة لم أستطع قراءة شيء فيها، فرفعت الكاس باتجاهه وقلت بالعربية:

- «بصحتك».

وهنا ارتسمت الدهشة على وجهه وسألني:

- «من وين الأخ؟».

- «من سوريا».

أجبت وقد زغرد شيء في داخلي، فاقترب مني وصافحني وعانقني بحرارة، ثم أصر على أن يصحبني إلى بيته، وانطلق في حديث استمر منذ خروجنا من السوبر ماركت مروراً بالباص في طريقنا إلى القرية التي يقيم فيها قرب هذه المدينة الصغيرة وصولاً إلى طاولة العشاء التي اعتنت بها زوجته كما لو أن الزائر ضيف ذو أهمية خاصة، ولأنني لاحظت أن به جوعاً للحديث فلم أقاطعه أبداً، فهو منذ سنتين لم يتحدث بالعربية. وفي نهاية المطاف قرر أن يسألني عن سبب وجودي في هذه المدينة، فأخبرته أنني طالب في كلية الصحافة، وقد أرسلوني إلى هنا لكي أنفذ مادة التطبيق العملي في جريدة الفجر التي تصدر هنا، فوعدني بأن يصحبني إليها يوم الاثنين، واتخذ قراراً بأن أعيش في بيته طوال فترة وجودي هنا، ولم يكن لدي مانع خاصة بعد أن تناول عوداً كان في جعبة سوداء على ظهر الخزانة، أخرجه من هناك وأخذ يدوزنه قائلاً:

- «من زمان ما عزفت... مرتي ما بتتذوق العود».

ثم عزف وغنينا حتى الصباح تقريباً، وكانت زوجته سعيدة جداً كونها، كما أوضحت لي، لم تره منذ سنين سعيداً كما هو

الآن. وقبيل الفجر حين تعبنا من الغناء تطاولت وسألته عن سبب وجوده في هذه القرية النائية التابعة لهذه المدينة النائية، فتنهد وقال بحرقة:

- «السبب حمرنتي».

ثم أوضح بعد أن تنهد وصمت لبعض الوقت ناظراً إلى نقطة مجهولة وعيناه تلتمعان:

- «جئت قبل ثلاثين عاماً لدراسة الإخراج المسرحي، وكنت أظن أنني بعد ست سنوات سأعود لأجد كل شيء قد تغير، وأنني حين أنتهي من دراستي ستكون البلد ترفل بالديمقراطية».

صمت من جديد وبرقت عيناه وهو ينظر إلى نقطة مجهولة، ثم تابع:

- «كنت غراً، لم يكن لديَّ أي معطيات تجعلني أتوقع هذا، كان ذلك مجرد أمل صبياني، ولهذا لم أترك أحداً لم أتطرق إليه بالنقد، ولم أتورع عن توجيه الشتائم إلى الجميع، لم يبقَ أحد لم أشتمه، رويت النكات وجمعت رسوم الكاريكاتير التي تناولت أهم الشخصيات، وهكذا مرت السنوات الست مثل شربة الماء. وعلى الرغم من أن الجامعة اشترت لي بطاقة الطائرة، فقد فضلت البقاء هنا والعمل في قرية زوجتي لكيلا أمضي بقية عمري في زنزانة ما. وهكذا، كما ترى، مضى العمر ولم يتغير شيء.

- «المهم أنك تعمل».

قلت مواسياً إياه، فقال بنبرة لا تخلو من التهكم وابتسامة لا تقل تهكماً:

- «نعم، ليس هناك ما هو أهم من ذلك».

- «وهل هناك إقبال على المسرح الذي تعمل فيه؟».

- «نعم... يرتاده كل سكان المدينة يومياً تقريباً، وأنا أؤدي الدور نفسه منذ عشرين عاماً».

- «وما هو الدور؟». سألته بدافع الفضول، فقال:

- «العتال... أحضر في الصباح الباكر، أخرج البضاعة من المستودع إلى صالة البيع، وآخذ الصناديق الفارغة من الصالة إلى المستودع. وعندما تحضر السيارة صنفاً من البضاعة أقوم بإفراغ صندوقها. لقد أتقنت الدور جيداً على مدى خمسة وعشرين عاماً».

في منتصف حديثه تقريباً، توارد إلى ذهني ذلك العتال الذي كان يجر عربته وظهره لي عندما كنت أراقب الرجل الغاضب على لفافات السوشي، فسألته في محاولة لتلطيف الأجواء قليلاً:

- «من تلك التي كنت تشتمها ذلك اليوم؟».

فضحك وقال:

- «ههههه، العربة المتهالكة، التي تارة يفلت دولابها وتارة تنخلع قبضتها وعبرها الجميع وكل شيء».

أمضيت الشهر كله في ضيافة كمال، كل يوم أذهب إلى الجريدة أقوم بتنفيذ المهمات التي يكلفني بها المشرف، ثم أتوجه إلى السوبر ماركت، وبرفقة كمال نتوجه إلى قريته حيث نسكر ونغني إلى الفجر.

وعندما ودعني في محطة القطار ونحن نحتسي البيرة في مقهى المحطة في انتظار القطار قال لي:

- «هل تعرف... يتهيأ لي إنني سافرت لشهر إلى سوريا، أو أن سوريا سافرت إليَّ لشهر».

ثم نصحني:

- «لا تكرر خطأي... حافظ على لسانك ولا ترخِ له العنان. الحياة في الغربة موت».

لم يستطع أن يخفي دمعه وهو يودعني ملوحاً لي وأنا أقف على النافذة، أما أنا فعدت إلى متابعة دراستي في كلية الصحافة، ولكنني لم أعمل بنصيحته، فقد كنت على يقين من أن الأمور ستتغير خلال السنوات الأربع المتبقية في الجامعة، فكررت التجربة بحذافيرها، الفرق الوحيد هو أن زوجتي كانت من المدينة، ولهذا السبب فقد عثرت على عمل أكبر مكانة من عمل كمال، فأنا هنا أعمل ترجمانا في المحاكم وعلى نقاط الحدود وما يتسنى من معاملات الطلاق والزواج. وها هو العمر يمضي ولا شيء يتغير.

رائد فضاء

غادرت أرض الوطن حاملاً معي التهاباً في القصبات، وهذا ما كنت أجيب به عندما كان الطبيب يسألني عما إذا كنت أعاني من شيء ما في أثناء جولتي على أطباء مستوصف الطلبة رقم 33، ولكن الطبيب كان يوقع الورقة التي بين يديه ويتكلم مع المترجم المتطوع محمد زينو فيقودني هذا السيد إلى غرفة أخرى فيها طبيب آخر أو طبيبة أخرى، وأتلقى السؤال نفسه وأجيب الإجابة نفسها: «أعاني من التهاب القصبات»، ولكن الطبيب أو الطبيبة يوقع في المكان المقرر له ويحدث محمد بشيء ما ثم نخرج إلى غرفة أخرى، وهكذا حتى خرجنا من المستوصف بعد أن وقع جميع الأطباء على الورقة التي كانت مطلوبة في الجامعة:

- «دعنا نمر إلى الصيدلية لصرف الدواء الذي كتبه لنا الطبيب».

قلت لمحمد خشية أن يذهب قبل أن نفعل ذلك فلا أجد طريقة للتفاهم مع العاملين في الصيدلية كوني أجهل اللغة، ولكن محمد قال إنه لم يخبر الأطباء بأنني اعاني من شيء لأنهم سيحولونني بالتأكيد الى المشفى الذي سأبقى فيه حتما لأكثر من شهر، وعندها سأندم على الساعة التي سافرت فيها إلى الاتحاد السوفييتي كما أكد لي، ثم وعدني بأن يصحبني إلى كلية الطب حيث يساعدنا أحد الطلاب هناك بكتابة الوصفة، ثم نذهب إلى الصيدلية ونصرف الدواء، وكان الله يحب المحسنين كما ختم كلامه.

ولكن محمد بعد أن اوصلني إلى مسكن الطلبة الواقع في جادة أومسكي قرب ساحة النصر اختفى ولم أرَ وجهه بعد ذلك أبداً، وقد علمت فيما بعد أنه سافر إلى مدينة كييف لمتابعة الدراسة هناك، أما أنا فتابعت حياتي مع قصباتي الملتهبة مستخدماً طريقة العلاج الشعبية التي يستخدمها معظم الناس في الوطن، أي ترك الجسم يصارع المرض حتى يشفى من تلقاء نفسه، ولكن ذلك في هذه المرة لم ينفع، فقد تفاقمت حالتي إلى درجة لم تعد مقبولة. وفي يوم الأربعاء في الساعة الثانية بعد منتصف الليل تقريباً، وعلى الرغم من حبي الكبير للعبة التريكس التي لم أكن أشبع منها، وجدتني بعد أن أصبحت أجد صعوبة في التنفس أرمي الورقات المتبقية في يدي وأطلب من الشباب أن يستدعوا لي الإسعاف، وتعبيراً عن محبتهم نزل الأصدقاء جميعاً إلى الطابق الأرضي

حيث تناوب العجوز إيرينا النحيفة والقصيرة القامة، ولم يتمكنوا بلغتهم الروسية الهشة سوى من نطق كلمتين (الدكتور الصديق) ولكن إيرينا فهمت ورفعت سماعة الهاتف وضربت رقماً ما، ولم يمضِ ربع ساعة حتى كان الطبيب يجلس على كرسي قبالة سريري الذي كنت أجلس فوقه ويستمع، فأخذت أروي له بلغتي الإنكليزية المتواضعة ما الذي أعاني منه، وكان هو يهز رأسه دون أن يستفسر عن شيء إطلاقاً. وعندما انتهيت من الكلام نهض وقال شيئاً ما مشيراً براحته إلى الباب، ففهمت أن عليَّ أن أرافقه، ففعلت، وقد لفت نظري أن الطبيب لم يحضر معه لا جهاز قياس الضغط الذي لا يفارق أطباء الإسعاف عادة، ولا حاول قياس حرارتي أو النظر إلى حنجرتي، بل كان يستمع لما كنت أرويه كما لو أنه يرفع العتب.

وصلت إلى غرفة الاستقبال في الثالثة ليلاً على وجه التقريب، وعبر كلمات لم أفهمها وإشارات واضحة فهمت أن عليَّ الاستلقاء على سرير هناك، ثم تحلق حولي طبيبة وعدة ممرضات، الطبيبة أخذت تفحصني بسماعتها، ثم قاست لي ممرضة الضغط، وتم الانتهاء من المعاينة السريرية وقيل كلام آخر لم أفهم كلمة منه، وعند الباب كان يقف ممرض طويل القامة عريض الكتفين قوي البنية قالت له الطبيبة شيئاً ما فانصرف.

بعد أن حقنت بعقار ما شعرت بالاسترخاء وغفوت فوق ذلك

السرير حتى الصباح. وفي الصباح جاءت ممرضة كانت مرحة جداً، روت لي أشياء يبدو أنها مضحكة وقهقهت، فضحكتُ معها من باب المجاملة. ثم أشارت إليَّ ففهمت أن عليَّ مرافقتها. وصلنا إلى الجناح الذي سأكون أحد نزلائه على الطابق الثالث من أحد مباني المشفى الواقع في منطقة "نافينكي"، كما علمت فيما بعد، وأول ما لفت نظري ذلك الشبك الحديدي الذي أغلق به الجناح، والذي ذكرني بالشبك الذي كان يغلق باب مهجعنا في سجن حلب العسكري الذي كنت نزيلاً في مهجعه الثاني قبل أقل من ثلاثة أعوام. وعلى الرغم من استغرابي للأمر، إلا أنني بررت لهم ذلك وقلت في نفسي «ربما لحماية المرضى»، ولكن شمس ذلك اليوم لم تمضِ قبل أن أعرف أن الشبك لم يكن لحماية المرضى وإنما منعاً لخروجهم.

في الغرفة كان معي ثلاثة أشخاص، أحدهم إيراني كان صامتاً معظم الوقت، وأحدهم أندريه، وهو كما فهمت عامل في أحد المصانع، لعبت معه الشطرنج قبل أن يحدثني الشخص الثالث واسمه فاسيلي الذي عرف عن نفسه باللغة الإنكليزية ومد يده مصافحاً، مد إلى فاسيلي صورة لكوكب الأرض مرسومة بعناية بقلم حبر ناشف، ولكنها تبدو كلوحة حقيقية وقال لي إنه رسمها من الفضاء، فقد تبين أن فاسيلي رائد فضاء، وهنا لم أستطع إلا أن أعرب عن إعجابي قائلاً في نفسي: «يا سلام! هذه هي الاشتراكية؛

الجميع يعالجون في المشفى نفسه». توطدت علاقتي بفاسيلي بسرعة صاروخية، فقد أصبحنا صديقين حميمين قبل أن ينصرم ذلك اليوم، والسبب الأساسي هو أن فاسيلي كان الوحيد الذي يتكلم الإنكليزية التي أستطيع ان أفهمها قليلاً. رسم فاسيلي أمامي صوراً توضيحية كثيرة أظهرت براعته في الرسم، وكانت بالطريقة نفسها التي رسم بها الكرة الأرضية من الفضاء. رسم الصاروخ وكيفية انطلاقه وكيف يتخلص من أجزائه في أثناء الرحلة ودورانه حول الأرض في مدار يساعده على الالتقاء بالمركبة الفضائية وكيف يلتحم معها، وحدثني عن حالة انعدام الوزن، وكيف يشعر الإنسان فيها، وعن الطعام الذي يأكله رائد الفضاء في الأعالي ماضغاً إياه بفم مغلق لكيلا يتناثر في الفراغ، وعلى مدى ثلاثة أيام الكثير الكثير من المعلومات التي لم يكن يمل ولا يتوقف عن روايتها، وكنت أنا سعيداً بما أسمعه، فطريقته كانت شائقة جداً، ويمكن القول إن معظم معلوماتي عن الرحلات الفضائية حتى الآن هي مما رواه لي فاسيلي، حتى إنني أشعر في أثناء مشاهدة البرامج التي تتحدث عن ذلك وكأنني شاهدت تلك البرامج من قبل.

الشيء الوحيد الذي كان ينغص عيشي هو دورة المياه، فقد كانت تحتوي على خمس حفر مفتوحة على بعضها بحيث يشعل النزيل لجاره الذي يفعلها على يمينه سيجارته فيشكره ذلك ويتابع

قراءة الجريدة التي بين يدي جاره الذي على يساره، والأنكى من ذلك أن الباب كان فيه كوة زجاجية تسمح لمن يعبر الممر برؤية الذين في الداخل. أنا لم أستطع التأقلم مع هذا، وصرت أنتظر ما بعد منتصف الليل حيث يكون الجميع قد خلدوا إلى النوم فأذهب إلى هناك وأفعل ما أريد دون أن يزعجني أحد. ولكن الرياح لا تجري دائماً كما تشتهي السفن، ففي اليوم الثاني ذهبت إلى هناك في الثالثة ليلاً فوجدت الباب مقفلاً، واضطررت في اليوم التالي إلى الانضمام إلى بقية الرهط المعتاد على ذلك.

في اليوم الثالث خرجنا إلى الحديقة، وكان هناك مربع محدد علينا النزهة داخله، حيث كان ممرض آخر قوي البنية يشبه إلى حد ما ذلك الذي كان يقف بباب غرفة الإسعاف، كان يمنع من يتعدى حدود ذلك المربع ويعيده إلى المربع، وهنا أيضاً تذكرت فترة التنفس في سجن حلب العسكري، «يا إلهي! لا ينقصنا سوى الجلاد المسعور هايل». فكرت في نفسي وشاهدت رائدة قادمة نحوي في يدها كيس تبين أن فيه بعض الفاكهة، وكان على وجهها ابتسامة ودودة كانت تحملها معها دائماً. رائدة كانت طالبة في السنة الأولى وكانت تتحدث اللغة الروسية، جلسنا على المقعد بعد أن صافحتني وشكرتها على ما جلبته معها في الكيس، ثم وجهت رائدة إليَّ سؤالاً لم أدرِ ما المقصود منه، حيث سألتني عما أفعله هنا، فأجبت مستغربا بأنني أتعالج، وهنا سألتني بنبرة مريبة:

- «هل تعرف أن هذا هو مشفى المجانين؟».

هكذا عبرت رائدة عن تخصص المشفى، بينما اسمه لم يكن في الحقيقة "مشفى المجانين"، وإنما مشفى الأمراض العقلية والنفسية، وهنا فقط أدركت أسرار ما يحدث من أشياء غريبة؛ الشبك الحديدي وباب المرحاض ذو الفوهة الزجاجية ومربع النزهة في الحديقة، وأصابني حزن شديد، أيعقل أيضاً أن فاسيلي ليس رائد فضاء؟ لا يحتاج هذا إلى سؤال طبعاً. كان عليَّ منذ البداية أن أدرك ذلك، فرائد الفضاء شخصية عسكرية تملك الكثير من الأسرار ولا يعقل أن يتم علاجها في مستشفيات عامة وفيها مواطنون أجانب.

عندما عدت إلى الجناح أمسكت بتلابيب الممرض القوي البنية وكنت أريد أن أقول له: «إذا لم أخرج من هنا غداً فإنني سأحطم أسنانك»، ولكنني مع الأسف لم أتمكن سوى من نطق كلمتي "غداً" و"أنا". ردد الممرض أو ربما الحارس كلمة بنبرة تهكمية وقلد حركاتي وانصرف، بينما توجهت أنا إلى الممرضة الخمسينية "سفيتلانا فيودوروفنا" التي أبدت تعاطفاً معي قبل، حين أخذت تجلب لي الطعام من منزلها عندما لاحظت أنني الوحيد الذي يأكل من طعام المشفى فقط. اقتربت منها فابتسمت ابتسامة ودية وقالت شيئاً ما لم أفهمه، وحاولت أن أقول لها إنني أريد أن أجري اتصالاً، ولكنني من جديد لم أتمكن من قول أكثر

من كلمتين هما "أنا" و"تلفون"، وقمت بحركة تحاكي حركة تحريك قرص الهاتف ووضعه على أذني، فما كان من سفيتلانا فيودوروفنا إلا أن مسحت على رأسي وقالت:

- «أنت ولد جيد... وكل شيء سيكون على ما يرام».

حنان السيدة سفيتلانا هذا، على الرغم من أنني فهمت كلامها، أزعجني أكثر مما بعث في نفسي الارتياح، فهي اعتقدت أنني في حالة من حالات مرضي، أدركت ذلك بعد أن ضربت على نفسي عزلة لم أعد أخالط فيها أحداً، حيث أصبحت أتناول طعامي وأقضي حاجاتي وأجلس على سريري لا أفعل شيئاً، ما دفع ممرضة شابة متدربة على الأغلب إلى أن تحضر لي الأرشيف السنوي لكل من جريدتي البرافدا والازفستيا، وهما مجلدان متوفران في جميع المؤسسات تقريباً كما لاحظت لاحقاً، حيث يحتوي كل مجلد من المجلدين على جميع الأعداد التي صدرت في العام الأخير. كانت الجريدتان مقلتين في الصور والرسوم، وحتى الصور التي عادة ما تنشر على الصفحات الأولى فهي مشاهد عمالية فلاحية تتطابق مع سياسة الحزب والدولة. تصفحت الأرشيف بسرعة، وسرعان ما شاهدت جميع تلك الصور من حصادات وجرارات وآليات وآلات مختلفة أخرى، ثم حملت المجلدين وأخذتهما للممرضة الشابة التي وجهت إليَّ كلمات لم أفهم معناها تحتوي على نبرة السؤال، فأجبتها دون أن أعرف عما تسأل بنعم، كما كنت

أفعل مع كل الأسئلة، فحين كنت أجيب على أسئلة الأطباء بكلمة "لا" حين كان يُهيّأ إليهم أنني فهمت السؤال فكانوا يوجهون إليَّ أسئلة جديدة، أما حين أجيبهم بنعم فيسجلون في دفاترهم شيئاً ما ويتابعون. بعد قصة أرشيف الجريدتين والممرضة التي ابتسمت ابتسامة حاولت أن تخفيها ربما لكيلا تجرح مشاعري عندما أجبتها على سؤالها فهمت أمراً خطيراً، هؤلاء القوم لا يعرفون أنني لا أتحدث الروسية، وعلى الأغلب أنهم يظنون إنني أتكلم بهذا الشكل بسبب خلل ما، هذا على الأقل ما كنت أعتقده. ولكن الذي كنت واثقاً منه هو أنهم لا يعرفون أنني لا أتحدث لغتهم، ولهذا السبب صرت أتجنب الكلام مع أحد، حتى مع رائد الفضاء الذي اكتشفت لاحقاً أنه حاقد على الاتحاد السوفييتي إضافة إلى أنه رائد فضاء، وحين شاهدت رجلاً من المهجع المجاور الذي كان فيه عدد أكبر من النزلاء مستلق على الأرض والممرض الحارس يخاطبه قائلاً:

- «انهض يا بونابرت قبل أن يأتي كوتوزوف».

كما ترجم لي رائد الفضاء، نهض الرجل وقال عدة كلمات لم أميز بينها إلا مفردة هيلانة. أصبت بالرعب، فإذا لم أخرج من هنا سأصبح مثلهم بالتأكيد، وصدق القائل بأنه من عاشر القوم أربعين يوماً أصبح منهم إن لم يرحل عنهم. أصبت باليأس وبدأت تداهمني نوبات اكتئاب سوداء تسبب لي ألماً كبيراً في الرأس،

وكنت أخشى من أن تتطور إلى ما هو أخطر من ذلك. حاولت أن اشرح لهم أنني لست مريضاً، ولكنني كنت مضحكاً وأنا أحاول فعل ذلك بمجموعة المفردات القليلة التي كنت أعرفها، والتي كان معظمها ينتمي إلى الضمائر أو حروف الجر أو ما شابه، ولذلك كففت عن المحاولة خشية أن يتم تحويلي إلى قسم آخر للحالات الأكثر حدة، وهو ما حصل مع بونابرت ورائد الفضاء بعده. وهناك كما أوضحت لي سفيتلانا فيودوروفنا يعاملون النزلاء بشكل أقسى، هذا ما هُيِّأ إليَّ أنها حاولت أن تشرحه لي. تسللت مرة عبر الدرج الخلفي الذي تم فتح بابه من أجل إحضار الطعام، ولكن عين الممرضين الساهرة لم تكن غافلة عني، يبدو أنني لست الوحيد الذي جرب ذلك، ولم أكد اقطع نصف الدرج حتى سمعت وقع أقدامهم خلفي.

تحدث أحدهم بكلمات لم أفهمها، فضحك الآخر ثم حملاني من تحت إبطي وعادا بي إلى القسم، وهكذا لم يبق أمامي سوى الاستسلام لليأس، وعبثاً انتظرت أن يزورني أحد، فلو كان أحد ما يفكر في زيارتي لفعل خلال الأسبوعين المنصرمين، وعندما بدأت أنسجم مع الزملاء في الغرفة والقسم وخاصة في غرفة المدخنين حيث كنا ندخن، وأصبحت أشعر أن الحياة هنا ليست بذلك السوء وخفت نوبات الكآبة، جاء إلى المستشفى شخص تشادي كان يتقن اللغتين، العربية والروسية، فطلبت منه على

الفور أن يترجم لرئيس القسم ذي اللحية الكثة السوداء المونسة بالأبيض، فقال التشادي:

- «مستحيل... طالما أنك دخلت إلى هنا فلن تخرج قبل ستين يوماً».

يبدو أن هذه ليست المرة الأولى التي يدخل فيها التشادي إلى هنا، إنه يعرف قوانينهم. وفي نهاية المطاف وافق التشادي على أن يترجم لي، فذهبنا إلى رئيس القسم الذي شرحت له ملابسات قصتي فوعدني بان يفكر في الموضوع بشكل جدي، وبعد يومين جاءت ممرضة وقالت لي إن هناك من ينتظرني في الخارج، ذهبت فوجدت خلف الشبك الحديدي من الجهة الحرة صديقيَّ اللذين طلبا لي الإسعاف، فصرخت بهما:

- «أين أنتم يا سفلة؟».

فأخبراني بأنهما لم يتمكنا من معرفة مكان المستشفى، الذي كان فعلاً خارج المدينة، وأخبراني بأن إدارة الكلية أرسلتهما لاستلامي، لأن الشخص هنا لا يخرج إلا إذا جاء أحد لاستلامه أو تمكن من الهرب وكان ذلك صعباً. في الجامعة ذهبت إلى العميدة وقدمت احتجاجي غاضباً، وطلبت توضيح السبب الذي أوصلني إلى هناك، فقالت العميدة إنني في الساعة العاشرة ليلاً تعرضت لنوبة هيستريا، فجاء فريق الإسعاف وحقنوني بمهدئ، ما وأخبروا العجوز إيرينا بأنه إذا تكرر الموضوع عليها أن تطلب

الرقم الذي أعطوها إياه، وبعد البحث والتقصي علمت أن الذي أصيب بالهستيريا هو طالب أفريقي غط في نوم عميق حتى الصباح بعد إبرة المهدئ. وبما أن إدارة المشفى لا تستطيع أن تقول إنني دخلت عن طريق الخطأ، فقد اختلقت لي تشخيصاً ظل يرافقني طوال فترة دراستي، ويتسبب لي بمعاملة خاصة، وكنت في كل مرة تبتسم فيها عميدة الكلية التي لا تبتسم لأحد عندما تقابلني وتحني رأسها قليلاً، أكاد أصرخ: لا تبتسمي يا سيدتي، فأنا شخص عادي لا أعاني من شيء. وكذلك كنت أفعل حين تمر قربي دزينة الطلاب الكوريين الذين يطبقون راحاتهم أمام صدورهم وينحنون ويبتسمون عندما يمرون بموازاتي ويحثون الخطى. باختصار فقد بقيت الطالب المدلل طوال فترة دراستي، ولم يكن أحد يصدق ما أقوله، كان الجميع يصدقون التشخيص المكتوب في الورقة الموجودة في إضبارتي، والذي لم يكن يعلمني بفحواه أحد.

المترجم الحمار

أبو علي سائق «هوندايه»، ولكنه يمارس السياسة منذ زمن بعيد، ويمكن القول إن كثيرين ممن هم في قيادة الحزب الآن انتسبوا إلى هذا الحزب على يدي أبي علي. غير أن محدودية أبي علي وضحالته الفكرية (كما كان البعض يعبر عند وصف أبي علي) منعته من الارتقاء في المناصب الحزبية، بينما ارتقى الآخرون، ولهذا فإن لأبي علي مكانة في الحزب تفوق مكانته في الحياة بما لا يقارن، فمن يراه في سوق الهال يرمي السحاحير في صندوق "هوندايته" وعلى قميصه بقع تركتها عصائر مختلفة لخضار وفواكه "ممعوسة"، لا يقول إنه الشخص نفسه الذي يدخل إلى مكتب الوزير دون "إحم ولا دستور" ويخاطبه ويقبل شاربيه قائلاً:

- «كيفك خاي أبو عبدو؟».

ثم يرتمي على الكنبة الوثيرة في مكتب الوزير وينتزع قدميه المتعبتين من الحذاء ويضعهما على الترابيزة الزجاجية طالباً:

- «وصيلنا على شاي خاي».

فيمتثل الوزير لطلبه وينتقل ليسترخي بدوره على الكنبة المقابلة ويبث إليه همومه في الوزارة، ولعل أبا علي هو الشخص الوحيد الذي شكا إليه الوزير أنه في الوزارة مجرد رجل كرسي لا يحل ولا يربط، الأمر الذي جعل أبا علي يرد عليه بعبارته التي يرد بها دائماً على منتقدي سياسة الحزب الداخلية، فيقول:

- «معليش خاي معليش... طول بالك. مضطرين ننخ تكتيكياً منشان الهدف الاستراتيجي».

المهم، فإن أبا علي، وبسبب ما ورد ذكره، وإن كانت لا توكل إليه مهمات حزبية حساسة، إلا أن الحزب يعامله كرفيق ذي مكانة عالية وأهمية خاصة، ولذلك فعندما مرض في إحدى المرات تمت معاملته مثلما يعامل عضو اللجنة المركزية، حيث تم إرساله إلى بلغاريا لكي يعالج هناك في مشفى اللجنة المركزية للحزب الشيوعي البلغاري.

وفي بلغاريا عومل أبو علي على هذا الأساس أيضاً، فتم تعيين مترجم له يرافقه في جولاته على الأطباء ويساعده في تدبير أموره

إن احتاج إلى شيء، وعلى الأغلب فإن لهذا المترجم صفة أمنية ما، ويتحمل مسؤولية ما فيما يخص أبا علي.

لم يكن أبو علي مسروراً جداً لهذا المترجم، وكان كلما ترجم له عبارة، يعلق مغمغماً دون لفظ الكلام بشكل واضح لكيلا يفهم المترجم:

- «عليٍّ الحلال إذا الجحش بيفهم ألماني إنت بتفهم عربي».

فقد كان أبو علي مضطراً في كل مرة إلى أن يعيد جملته أكثر من مرة لكي يفهم المترجم ما يقوله، وهذا كان يضايق أبا علي.

ولكن القشة التي قصمت ظهر البعير كانت عندما خرج أبو علي من المشفى بعد أن شعر بتحسن، وسار في الغابة قرب المشفى، فوجد نهراً حوله مناظر خلابة أخذ يتنزه على ضفته، وفي هذه الأثناء حضر المترجم إلى المشفى فلم يجده في غرفته، وسأل عنه في كل مكان فلم يجده، وبطبيعة الحال فإن أبا علي لم يترك أي قصاصة تفيد بأية معلومة عن سبب غيابه، وقد ازداد قلق المترجم عندما حان موعد الغداء ولم يظهر لأبي علي أثر، ووجد نفسه مضطراً إلى تناول وجبة أبي علي لكيلا يتساءل الأطباء عن سبب امتناعه عن تناول الطعام، كما أن المترجم خاف أن يبلغ مسؤوليه باختفاء أبي علي لمعرفته بعواقب ذلك على مستقبله الوظيفي، ولذلك فضل البحث بنفسه حول المشفى، راجياً أن يظهر أبو علي قبل انفضاح الأمر، فالعقوبة لن تختلف في حال علم المسؤولين

بذلك، سواء حدث مكروه لأبي علي أم لم يحدث، فإن ظهر كان به، وإن لم يظهر أو حدث له مكروه فلا حيلة بأحكام الله، هكذا كان يفكر المترجم البلغاري في داخله.

أما أبو علي فإنه بطبيعة الحال كان وهو يتأمل تلك المناظر يشبك يديه خلف ظهره، وفي رأسه كان فراغ جميل لم يكن فيه رغبة في خلخلته بأي تفكير يشوش سكينته، بما في ذلك طريق العودة. ولكنه وجد نفسه مضطراً إلى التفكير في ذلك الطريق عندما بدأت أسراب البعوض تهاجمه في مكان ما من عمق الغابة، فاستدار إلى الخلف ليكتشف على حين غرة أنه في متاهة، حيث لم يكن هناك أي درب أو علامة تشير إلى طريق. وهنا وعلى الفور تبادر على ذهنه ذلك الذي يتبادر إلى ذهن أي ابن مدينة عندما يجد نفسه وحيداً في البرية (الضبع الذي أكل بائع الحلاوة على طريق جوبر)، وسيأكله الآن، وشعر بقلق كبير لإدراكه بأنه فقد الطريق، وسار باتجاه الخلف، ويمكن القول إنه هام على وجهه في الغابة.

المترجم كان يندب حظه ويلعن الساعة التي تعرف فيها إلى أبي علي، فهو وإن كان أبو علي في الوثائق التي لديه مقيداً كعضو لجنة مركزية، إلا أنه لم يكن يرغب في أن يكون أول مهمة يُكلَّف بها في عمله، فهو درس العربية لعله يفرز إلى سفارة ما في الخارج، حيث يتعرف على العالم ويجني ثروة ما، لا أن يعمل في المشفى

مترجماً لعجائز اللجان المركزية لأحزاب شرق المتوسط الثورية الذين يأتون حتى من أجل استئصال البواسير، وكان يشعر بكراهية لأبي علي لأن شعوراً أخذ يتسلل إلى نفسه بأن أبا علي هو الذي سيحطم له مستقبله في بداية الطريق.

شاهد أبو علي - بعد لأي - علامات تدل على وجود تجمع ما، فتوجه نحوه لعل أحداً يساعده في العودة إلى المشفى، ولأنه وعلى امتداد منطقة واسعة حول مشفى اللجنة المركزية، ولأسباب أمنية لا يوجد أي تجمع، فإن هذا التجمع الذي شاهده أبو علي كان مبنى مشفى اللجنة المركزية الذي كان يبحث عنه، والذي عرفه أبو علي عندما أصبح على مسافة قريبة منه. أما المترجم الذي كان جالساً على مقعد في ممر أمام المشفى، فعلى الرغم من كراهيته لأبي علي إلا أنه عندما شاهده يظهر من بين الشجيرات القريبة كاد يطير ويحط عليه معانقاً، غير أنه لم يفعل ذلك لأن العناق بين رجل ورجل بالطريقة التي يتمكن عبرها من التعبير عن مستوى فرحته بعودة أبي علي لم تكن دارجة هنا، ولذلك اكتفى بسؤاله بلهفة:

- «أين كنت يا رفيق أبو علي؟».

- «كنت عبأزدر على زيئ النهر خاي».

أما المترجم الذي لا يفهم العامية، خاصة إذا كانت من طراز عامية أبي علي الحلبية الغميقة، فقط تساءل مرة أخرى:

- «أين؟».

- «على زيئ النهر خاي، كنت عبأزدر».

- «لا أفهمك يا أبا علي... تكلم بالفصحى من فضلك».

- «لا أفهمك... ليش أنت حدا كزب عليك وقلك بتفهم؟».

غمغم أبو علي بطريقته السابقة لكيلا يفهم المترجم ما يقول، ثم أردف بالفصحى مشكِّلاً أواخر الكلمات مركزاً على نطق مخارج الحروف بشكل سليم:

- «كُنْتُ أُؤَزْدِرُ على زيئِ النهرِ... خاي... يا أخي».

ولكن المترجم مرة أخرى أعرب له:

- «لم أفهم يا أبا علي».

فأعاد عليه أبو علي العبارة نفسها بالفصحى بتأنٍّ أكبر:

- «كنت... إشو؟ كنت... أؤزدر... إشو؟ أؤزدر. كنت أؤزدر على زيئِ النهر... فهمت هلق؟».

- «لم أفهم».

أجاب المترجم البغو الذي لم يكن يعلم أن أبا علي تثور ثائرته أحياناً، فما كان من أبي علي إلا أن قال بشكل مسموع هذه المرة وبدون موراية أو مراعاة لمشاعر المترجم:

- «لك خاي إذا هي مانك فهمانها... إشو اللي بتفهمه لكان؟ مانا شغلتك هالشغلة لك خاي... مانا شغلتك. دورلك على غير شغلة أحسن».

ثم توجه إلى باب المشفى وتبعهِ المترجم الذي لم تتأذَّ مشاعره مما قاله أبو علي لأنه لم يفهم منه كلمة واحدة.

وفي البهو، طلب أبو علي من الممرضة أن تعطيه التلفون لكي يتصل، فتساءلت الممرضة التي لم تفهم: «وات»؟

فغضب أبو علي:

- «لك أختي تلفون... بكل العالم تلفون... بدها وط وما وط كمان؟».

فهمت الممرضة وناولته جهاز الهاتف، فاتصل بممثلي الحزب هناك وقال غاضباً:

- «لك خاي إشو هالمترجم الحمار اللي جايبيلنا إياه؟ كلمتين ما بيعرف يترجم».

فوعده الرفاق بالتدخل من أجل حل الموضوع.

وهكذا قضى سائق الهونداية السوري أبو علي على مستقبل المترجم البلغاري، الذي توجه للعمل في التمديدات الصحية وظل طوال عمره كلما شاهد عربياً يسأله عن معنى كلمة "أؤزدر" وكلمة "زيِع"، ولكنه في كل مرة لم يكن يتلقى الإجابة على سؤاله، لأنه لم يكن قادراً على لفظ الكلمتين كما هما باللهجة الحلبية، فكان يكتفي بتوجيه شتيمة مقذعة لأم أبي علي ويتابع "قلوزة البوري" الذي بين يديه. وفي رواية أخرى، فإن المترجم توجه لدراسة اللغة العبرية.

استئناف

منذ ما يقارب الشهر، حُكم على محمد عادل شرنوبي بموجب المادة 371 من قانون العقوبات، المخصصة لعمليات تنظيم الهجرة غير الشرعية، فقد قبض على محمد (مصري الجنسية) وهو يحاول تهريب ثلاثة مصريين بجوازات سفر مزورة، أي كما هو متعارف عليه بالجرم المشهود، وبحسب هذه المادة فإن المتهم يحكم مدة تتراوح بين ثلاث إلى سبع سنوات. شريك شرنوبي الآخر الذي ورد ذكره في التحقيق تبدد كما يتبدد الدخان عندما علم بالقبض على شرنوبي، ومعه اختفت النقود التي حصلا عليها من الثلاثة الذين كانوا يحاولون تهريبهم. أما شرنوبي فقد بقي معه مبلغ ثمانين دولار فقط لا غير، وقد شملها الحكم الذي ينص إضافة إلى السجن على مصادرة الأموال المنقولة وغير المنقولة للمتهم.

مظهر شرنوبي في القفص الذي ينتصب على الجانب الأيسر لقاعة المحكمة، يبدو أنه أثار شفقة القاضية، فأصدرت الحكم بالحد الأدنى من المادة المذكورة، أي ثلاث سنوات. ولأن أولاد السلك كما يقول العامة "بناديق" ويعرفون كيف يطبشون الكفة لصالحك عندما يتعاطفون معك أو ضدك حين يحقدون عليك، فقد بحثت القاضية عن عدة أسباب مخففة واختصرت من المدة سنة، فأصبح الحكم سنتين، وكان السرور بادياً على وجه شرنوبي الذي شعرت به يكاد يصرخ:

- «يحيا العدل! يحيا العدل!».

كما فعل موقوف مصري منذ سنتين عندما برأه القاضي من التهمة الموجهة إليه.

قضية شرنوبي كان يفترض أن تنتهي هنا من حيث المبدأ، فهو حصل على أخف حكم ممكن بالنسبة إلى جريمته، ولكنني منذ أيام تلقيت رسالة مسجلة تحتوي على دعوة لحضور المحكمة من أجل الترجمة لشرنوبي الذي استأنف الحكم من داخل السجن.

في المحكمة تبين أن مطلب شرنوبي من الاستئناف هو أن يقتصر الحكم على مدة السجن، ويتم إعفاءه من البند المتعلق بمصادرة الأموال المنقولة وغير المنقولة، ولأن شرنوبي لا يملك من هذه الأموال سوى ثمانين دولاراً، فهو باختصار يطالب بأن يعيدوا إليه الثمانين دولاراً التي صادروها في أثناء اعتقاله.

بكل صراحة أنا فوجئت بهذا الطلب السخيف من قبل شرنوبي، فالثمانين دولاراً بالأسعار الموجودة هنا لا قيمة لها على الإطلاق.

المدعي العام الذي كدت أضحك عندما شاهدته يتحدث بجدية مبالغ فيها عن عدم وجود أساس لتلبية طلب شرنوبي، اتخذ عملياً الموقف المتوقع منه، ولكن لم أرَ مبرراً لكل هذه الجدية في ملامحه، ربما كان ذلك من أصول المهنة. القاضية أيضاً لم تكن أقل كاريكاتورية وهي تستمع إلى مُرافعة المدعي العام، والله شرنوبي هذا «نهفة» كما يقولون، جمع المحكمة بكل عناصرها من أجل ثمانين دولاراً.

بعد مرافعة المدعي العام اختلت هيئة المحكمة لنفسها من أجل التداول واتخاذ القرار، ثم انعقدت الجلسة من جديد بعد عشرين دقيقة تقريباً وأعلنت القاضية القرار: (بعد التداول قررت هيئة محكمة الاستئناف أنه لا يوجد اساس لإجراء أي تغيير في قرار محكمة منطقة المركز في القضية رقم كذا المتعلقة بتوجيه التهمة لمحمد عادل شرنوبي في المادة 371 من قانون العقوبات.... إلخ.. وتبقى على القرار كما هو أي سنتا سجن مع مصادرة كافة أمواله المنقولة وغير المنقولة).

أنا بصراحة كما لم أفهم شرنوبي فإنني لم أفهم المحكمة، فشرنوبي الذي لا يملك قرشاً واحداً قد يقرر أن يستأنف مرة أخرى، وهذا حق أوضحوه له عندما أبلغوه بقائمة حقوقه، وهو إن

فعل ذلك سيكلف خزينة الدولة عقد جلسة جديدة تدفع فيها الدولة أتعاب المحامي الذي تلتزم تعيينه ودفع أتعابه، وكذلك المترجم، وهذا وحدة فقط يكلف أكثر من مئتي دولار، بكلام آخر بسبب تمسك القاضي بدولارات شرنوبي الثمانين، فإن الدولة ستخسر 400 دولار أتعاب محامٍ ومترجم فقط، إذا لم نأخذ القرطاسية وباقي الأمور بعين الاعتبار، وكدت أسأل القاضية لماذا لا ترمي لشرنوبي دولاراته الثمانين في وجهه فتوفرين هذه الخسائر على خزينة الدولة، ولكنني فضلت الصمت مكتفياً بوجودي كمترجم فقط لا غير، فأصول المهنة تقضي بعدم تدخل المترجم في سير المحاكمة. وبينما كان رجل الشرطة يضع حلقتي القيد في معصمي شرنوبي قبل أن يفتح باب القفص لإخراجه وإعادته إلى السجن، سألت شرنوبي:

- «هل يستحق مبلغ ثماني دولار كل هذا لعناء؟».

فردّ بلهجته المصرية:

- «في ستين داهية التمانين دولار يا فندم... أنا بستأنف مش على شان التمانين دولار... دنا بستأنف علشان يجيبوني المحكمة».

- «وهل يشكل حضورك إلى المحكمة متعة بالنسبة إليك؟».

سألته، فردّ بثقة:

- «أمّال! من السجن للمحكمة نص ساعة جية ونص ساعة

رجعة... احسبها بنفسك حضرتك قد إيه البني آدم ممكن يشوف نسوان من شباك السيارة في الساعة ديا؟».

ثم صمت لحظة وأردف وهو يخرج من القفص بعد أن فتحه الشرطي:

- «دا غير النسوان اللي تشوفهم في المحكمة هنا».

إفادات

- «القاضي قادم».

صاحت سكرتيرة المحكمة، فوقفنا جميعاً احتراماً له كما يقتضي العرف، ودخل هو. وبعد أن ألقى بمؤخرته على مقعد كرسي القضاة، دق بمطرقة خشبية على الطاولة وأعلن افتتاح الجلسة، ثم بدأ دوري كمترجم، طلب القاضي من المجني عليه أن يدلي بإفادته.

وقف المجني عليه خلف المنبر وكان في الخمسينات من عمره تقريباً وأمرد الشعر، اجتمع كل بؤس العالم في وجهه، وبدأ يروي الواقعة.

ومع أنني كنت أترجم للجاني ما يقوله المجني عليه، إلا أن رغبة عارمة كانت تعتمل في داخلي في أن أنهض وألوي قضبان

القفص الذي يقف فيه وأدخل إليه لكي أحطم له ليس أنفه فقط، وإنما كل عظمة فيه. يا له من كلب سافل! يا له من وغد! يا له من... من... من... مستحيل! لا يمكن العثور على كلمة يمكن أن تشبع رغبتي في التعبير عن احتقاري له. إنه لم يسمع بكلمة شرف في حياته، فلو سمع بها لما سوّلت له نفسه ارتكاب ربع ما ارتكبه بحق المجني عليه.

الحمد لله أن إفادة المجني عليه لم تستمر أكثر من ساعة، فأنا على ثقة تامة بأن قدرتي على الاحتمال كانت ستنتهي بعد دقائق قليلة، أنا على ثقة بأنني كنت سأنهض وأبصق في وجه ذلك السافل الذي في القفص، لأنه لا يمكنني فعل أكثر من ذلك.

بعد انتهاء المجني عليه من إفادته طلب القاضي من المتهم أن يدلي بإفادته هو الآخر، فوقف المتهم داخل قفصه وبدأ يروي الواقعة، ومع أنني كنت في ذروة الحقد عليه لدرجة لم أكن قادراً معها على إخفاء نظرة الازدراء نحوه في عيني، إلا أنني كمترجم كنت مضطراً إلى سماع ما يقوله وترجمته للآخرين، غير أن الحقد نحوه بدأ يتلاشى تدريجياً مع تقدم روايته للواقعة، ولم تمضِ دقائق إلا وكان حقدي كله قد تحول باتجاه المجني عليه، المجني عليه بين قوسين طبعاً، فقد تبين أن هذا الحيوان الأمرد الشعر الذي في الخمسينات من عمره ليس سوى كلب سافل، وتمنيت لو أن القاضي والمدعي العام يغيبان عن الوعي قليلاً

لكي أنهض وأحطم له ليس أنفه فقط، وإنما كل عظمة فيه. يا له من كلب قذر! كيف تسول له نفسه بزج هذا العصفور البريء خلف القضبان؟ ومرة أخرى، الحمد لله لأن إفادة الجاني انتهت، فلو استمرت دقائق أخرى لنهضت وبصقت في وجه السافل الذي يسمى زوراً وبهتاناً "المجني عليه" كنت سأفعل ذلك حتى إن لم يغب القاضي عن الوعي، فلا يمكن لشخص يمتلك ذرة من ضمير أن يقف حيادياً تجاه هذه المهزلة، ولكن إفادة الجاني انتهت، وطلب الشاهد الأول لكي يدلي بشهادته، ولم يمضِ على بداية حديثه دقيقة ونصف حتى بدأت تعتمل في نفسي الرغبة في تحطيم أنف المتهم من جديد، فقد تبين أن كل ما قاله هذا السافل الذي في القفص كان كذباً في كذب، وأن المجني عليه هو الذي قال الصدق.

وغادر الشاهد الأول قاعة المحكمة دون أن تغادرني الرغبة في تحطيم أنف المتهم، ودخل الشاهد الثاني، ولم تمض دقيقة على بدء إفادته حتى كانت الرغبة في تحطيم العظام قد تحولت إلى المجني عليه مرة أخرى، فقد تبين أن الشاهد الأول ما هو إلا شاهد زور، وبعد إفادة الشاهد الثالث تبدلت مشاعري مرة ثالثة، وهكذا بين العاشرة صباحاً والثالثة ظهراً حدث هذا الانقلاب الحاد في داخلي أكثر من سبع مرات.

عند الانتهاء من إفادات الشهود كنت في حيرة من أمري،

للحظات كنت أشعر أن الجاني بريء وأن المجني عليه سافل، وللحظات أخرى أشعر بعكس ذلك، وفي لحظات غيرها كنت أشعر أنهما معاً سافلان، وللحقيقة فإنني حتى الآن لم أستقر على شعور من هذه المشاعر. شيء يبعث على الجنون فعلاً.

عندما تحدث المدعي العام جحظت عيناي، نعم ربما يكون الجاني سافلاً ومجرماً، ولكن مع ذلك فالأمر لا يستحق هذه العقوبة القاسية، فالجريمة على سفالتها لا تستحق خمسة عشر عاماً من السجن مع الأشغال الشاقة. اتقِ الله يا رجل! إن هذا نصف حكم بالإعدام. ولكنني في نهاية المطاف كنت أفهم أن هذا هو عمل المدعي العام، وأنه يعتبر ناجحاً بقدر قساوة الحكم الذي ينتزعه من القاضي على المتهم. عيناي جحظتا مرة أخرى عند مرافعة المحامي، من الواضح أن العدل كان آخر بند في جدول أعماله، فهو لم يترك أدنى فرصة لم يستغلها لإثبات براءة موكله، حتى الأخطاء المطبعية، ومع ذلك فقد كنت أفهمه وأدرك بأن هذا عمله.

الشيء الوحيد الذي لم أفهمه ولا أظن أنني يوما سأتمكن من فهمه هو: كم من الشياطين تجتمع في رأس القاضي لكي تولد لديه الثقة بإصدار الحكم، مهما كان هذا الحكم؟ ولذلك فعندما أتيحت لي الفرصة وجهت إليه السؤال عن الطريقة التي يتخذ بها قراره النهائي، ومدى ثقته بالحكم بعد كل هذه الإفادات، فنظر إليَّ

ونزع نظارته وأخرج محرمة وبدأ يمسح زجاجها، ثم تنحنح وقال بنبرة لا تخلو من الشعور بالذنب ما معناه:

- «يا ابني... "ياما في الحبس مظاليم"».

الشرطة هنانا أوادم

لكل شخص من اسمه نصيب كما يقولون، ولكن جميل في هذه اللحظة لم يكن له من اسمه أدنى نصيب، فهو منذ عشرة أيام معتقل في سجن المطار حيث ألقي عليه القبض وهو يحاول مغادرة البلد إلى إحدى بلدان أوروبا الغربية بجواز سفر مزور. لم يغتسل منذ أكثر من أسبوعين، شعره الأشعث تكونت حوله طبقة دهنية اختلط بها الغبار فكان أشبه بغابة بنية صغيرة الأشجار، منظرها يوحي بوجود مخلوقات ما تدب في شعابها. ثيابه هي الأخرى اكتست بطبقة داكنة اللون شكلت فوقها بقع العرق الجاف والعرق الذي لا يزال رطباً تبايناً لونياً يخلو من الجماليات التشكيلية التي تبعثها الألوان عادة. أما الرائحة التي كانت تنبعث منه، فكانت كفيلة بجعلك تحافظ على مسافة أمان تفصل بينك وبينه لكيلا

يتذمر منك أنفك الذي لا يملك إلا رجليك للهرب. طُلب مني أن أترجم له في المحكمة التي ستبت في أمره كونه لا يعرف لغة البلد، ولكنه على الرغم من كونه على هذه الحال، وعلى الرغم من تعرضه لعملية نصب واحتيال من قبل المافيا التي تقوم بعمليات التهريب هذه، جعلته يبقى بدون قرش واحد في جيبه على هذه الأرض الغريبة، فقد كانت ترتسم على وجهه ابتسامة صادقة نابعة من القلب لا تلائم حالته أبداً. وعندما لاحظ أن التباين الحاد بين حاله وابتسامته يثير لدي بعض الاستغراب، قال جميل بلهجته العراقية كأنما ليوضح لي سبب ارتياحه رغماً عن ظروفه:

- «الشرطة هنانا أوادم يا أخي... ما يظربون».

المجني عليه

شكله من الخارج يوحي بأن كل هموم الأرض قد تربعت فوق كتفيه. عيناه الحزينتان، نبرة صوته الذليلة، بنطاله الذي مح لونه في عدة أماكن، قميصه الأزرق الذي خرجت من أطراف كميه وياقته تلك الخيوط التي توحي بأن قماشه لم يعد قابلاً للغسيل؛ كل شيء يوحي بأنه من المعذبين في الأرض.

أما مشكلته الآن فهي تعرضه لعملية نصب بمبلغ 20 ألف دولار، منها عشرة آلاف دولار نقداً وسيارة قدرت قيمتها بستة آلاف دولار، وقطعة أرض خارج المدينة قدرت قيمتها بأربعة آلاف دولار.

- «من البداية... كيف تعرفت على المتهمين يا بانتيلي؟».

طلب القاضي من بانتيلي الحديث، فتململ بانتيلي قليلاً

ومسح عرقاً تسرب إلى جبهته وازدرد لعابه، ثم قال بنبرة لا تخلو من الحرج:

- «تعرفت أولاً إلى أحمد...».

- «كيف تعرفت إلى أحمد؟».

- «عرفني إليه صديق اسمه تيموفي».

- «ولماذا عرفك إليه تيموفي؟»

- «تموفيي قال إن أحمد لديه معارف يشغلون مناصب، ويمكن أن يساعدونني في حل مشكلتي».

- «وما هي مشكلتك؟».

تململ بانتيلي وتلفت فيما حوله وكأنه يبحث عن حفرة يدفن فيها رأسه، ما دفع بالقاضي إلى طرح سؤاله مرة أخرى:

- «ما هي مشكلتك يا بانتيلي؟».

- «الرافعة... الرافعة يا حضرة القاضي. أقسم لك أنها لا تساوي كوبيكات، وفي نهاية العام كانت ستسجل كخردة ويتم رميها في مزبلة الحديد. كما أنها لا تستخدم...».

هنا قاطعه القاضي وأمره بالحديث في صلب الموضوع:

- «هذه قضية منتهية يا بانتيلي تمت أدانتك فيها وسجنت بسببها عامين».

- «ظلماً وعدواناً»، قاطع بانتيلي القاضي وتابع «أنا أعطيتها

للجماعة من منطلق إنساني لكي يستفيدوا... ولم أعطها من أجل مكاسب شخصية».

ثم تلفت فيما حوله وكأنما يطلب دعم الحضور فيما يقول:

- «آلة متوقفة تحت المطر والثلج... منذ عشر سنوات لم تعمل... أكلها الصدأ... أليس من الأفضل أن يستفيد منها المواطن؟ فائدة المواطن في نهاية المطاف هي فائدة للوطن ككل».

دق القاضي بالمطرقة على الطاولة وصاح:

- «لا تصور نفسك ملاكاً يا بانتيلي. لقد قبضت ثمن الرافعة خمسة عشر ألف دولار».

- «نعم... هذا صحيح. أصر الجماعة أن يعطوني المبلغ.. يمكن القول إنني قبضت المبلغ عنوة».

- «حسن... دعك من الرافعة الآن فقد انتهينا منها. أخبرنا، ماذا حصل لاحقاً مع أحمد؟».

- «حسن سيدي القاضي... ولكنني أؤكد لك أن لجنة التخمين ليست محقة بتقدير ثمن الرافعة؛ لقد وضعوا لها ثمن رافعة جديدة، مع أنها تقريباً خردة».

ضرب القاضي على الطاولة ولكن بيده هذه المرة، وصرخ غاضباً:

- «لا تخرج عن الموضوع يا بانتيلي!».

- «حسن سيدي القاضي. أنا آسف... ذهبت أنا والمحاسب إلى أحمد».

- «من هو المحاسب؟».

- «المحاسب هو تيموفي».

- «هل كان يعمل محاسباً؟».

- «لا... كانوا يلقبونه هكذا».

- «من كان يلقبه هكذا؟».

شعر بانتيلي أنه أخطأ عندما ذكر كلمة «المحاسب»، وتململ مجدداً، وحك رقبته من الخلف تحت قبة القميص:

- «هناك كانوا يلقبونه هكذا».

- «أين هناك؟».

- «في السجن». قالها بانتيلي وكأنه يبق بحصة من فمه، ثم تابع في حملة دفاع عن صديقه: «ظلماً وعدواناً... لم يسرق شيئاً. كان يعمل حارساً في الشركة. في أحد الأيام اكتشف أن مكتب المحاسب مفتوح فدخله، من باب الفضول، فوجد الخزنة مفتوحة، فنظر فيها من باب الفضول... كل من يعرف تيموفي يعرف أنه فضولي...».

- «كفى!»، ضرب القاضي بالمطرقة وتابع: «لا تخرج عن الموضوع!».

- «حاضر سيدي القاضي... أنا فقط لكيلا تظنوا الظنون بتيموفي، فهو إنسان شريف، ولكن وقع في المصيدة... شاهد النقود... نقوداً كثيرة؛ لم يتمكن من المقاومة».

- «قلت كفى! تابع ما الذي جري بينكم وبين أحمد لاحقاً».

- «نعم... ذهبنا إلى بيت أحمد وشرحنا له القصة...».

- «أي قصة؟».

- «قصة الرافعة».

- «التي سرقتها؟».

- «هي ليست سرقة بالمعنى الحرفي للكلمة، هكذا تم تفسيرها من قبل المحقق، طبعاً؛ فلديه خطة سنوية! يجب أن يقبض على عدد معين من اللصوص... فإن لم يعثر عليهم يخترعهم لكي يترفع».

- «بانتيلي!»، صرخ القاضي.

- «نعم سيدي القاضي... نعم... أحمد قال لنا إن لديه معارف ذوي مناصب عليا في السلك القضائي وسلك الشرطة، ضباط ذوي رتب عالية جداً... يفكون مشنوق».

- «وهل عرفكم على أحد من هؤلاء الذين يفكون المشنوق؟».

- «نعم، هذا الشخص الجالس قربه في القفص، سيريوجا، قال إنه لواء في الشرطة ورئيس قسم مكافحة الجريمة المنظمة».

- «وماذا حصل بعد ذلك؟».

- «قال إنه يريد مبلغ عشرة آلاف دولار».

- «وماذا قلت؟».

- «قلت له إن هذا رقم كبير... فقد تم الحجز على أموالي بسبب الرافعة».

- «وماذا قال لك؟».

- «هذا رجل لديه استعداد أن يمص دمك يا سيدي القاضي إن وقعت في براثنه... لم يبد أي نوع من التعاطف معي. أصر على المبلغ».

- «وماذا فعلت؟».

- «جمعت كل ما تملكه زوجتي وولداي وأختي وزوجها وأخت زوجها... وجمعنا المبلغ».

- «ولماذا كان يريد هذا المبلغ؟».

- «لم أسأله... فكرت في أنه طالما يريد مساعدتي فلتذهب النقود إلى الجحيم... حريتي تساوي أكثر من ذلك».

سكرتيرة المحكمة تسجل في المحضر مرددة ما تكتبه على غير عادتها:

- «رشوة بمبلغ عشرة آلاف دولار».

ما جعل بانتيلي ينتفض خلف منبر الشهود:

- «لا يا سيدتي... لا... ليست رشوة. من قال إنها رشوة؟».

- «ماذا إذاً؟».

سأل القاضي بنبرة صارمة.

- «ما أدارني أنا يا سيدي القاضي؟ ربما يحتاج المبلغ لأمر ما، ولكن ليس رشوة. ليس بانتيلي بالمواطن الذي يدفع الرشاوى... حتى لو كان حبل المشنقة سيلتف على عنقه».

- «حسن، هذا غير مهم الآن... تابع».

- «لا يا سيدي القاضي... لقد علمتني التجربة أن أتوقف عند كل كلمة. فلتصحح السيدة السكرتيرة الكلمة؛ فلتشطب مفردة الرشوة، لأن العشرة آلاف دولار التي قدمتها لهذا الشخص ليست رشوة».

- «حسن أيتها السكرتيرة، قومي بصياغة العبارة بشكل آخر... كما تفوه هو بها».

تقوم السكرتيرة بالتصحيح بينما يتابع القاضي:

- «وهل أحضرت له المبلغ؟».

- «نعم، في اليوم التالي. لم يترك لي فرصة».

- «وهل كان هناك أحد حين سلمته المبلغ؟».

- «نعم، أحمد. ولكنه ينكر لأنه صديقه... وإيفان».

- «وهل إيفان على استعداد ليشهد بذلك؟».

- «نعم سيدي القاضي... إيفان لا يكذب»..

- «حسن. ما هو عنوان إيفان لكي نستدعيه في المرة القادمة؟».

يتنحنح بانتيلي عندما يُسأل عن عنوان إيفان، ثم يجيب:

- «شارع الثورة، منزل رقم سبعة عشر على ما أعتقد، ولكن لا أعرف رقم الغرفة».

- «هذا عنوان السجن المركزي... هل إيفان في السجن المركزي الآن؟».

- «نعم... لُفقت له تهمة هو بريء منها وهو الآن يدفع ثمن... يمكن القول ثقته المفرطة بالناس الذين لا يستحقون ذلك».

- «وما هي تهمة إيفان؟».

- «تلك التي تنص عليها المادة ثلاثمئة وواحد وعشرين البند الثالث... ظلماً وعدواناً».

- «سطو مسلح!».

عقب القاضي، فظهرت ملامح الازدراء على وجه بانتيلي ورد قائلاً:

- «لا مسلح ولا بطيخ! الله وكيلك يا سيدي القاضي... سكين صغير يحمله الرجل من أجل تقشير التفاح جعلوا منه سلاحاً أبيض... مسخرة!».

يتوجه القاضي إلى السكرتيرة:

- «أرسلي مذكرة لكي يحضروه للشهادة في الجلسة القادمة».

- «حاضر سيدي القاضي».

هنا نكس بانتيلي رأسه وتوجه للقاضي بطلب:

- «سيدي القاضي... هلي يمكن أن أتقدم بطلب؟».

- «ما هو؟».

- «إذا كان هناك مجال ألا أكون هنا حين حضور إيفان».

- «لماذا؟».

- «هكذا... خلافات شخصية بسيطة لا قيمة لها».

- «مع ذلك يجب أن أعرف ما هي لكي أقرر».

- «ببساطة يا سيدي القاضي... هذا الأحمق إيفان يظن أنني أنا من وشى به».

- «في قضية السطو المسلح؟».

- «لا... في قضية أخرى قديمة... بلغ عنه عبر الهاتف شخص باسم مستعار، فظن أنني هو».

- «ولماذا ظن ذلك؟».

- «لأن لا أحد غيري وغيره يعرف بالموضوع».

- «وبأية تهمة؟».

- «المادة سبعمئة وثلاث وأربعون البند الخامس/ آ/ ».

- «خلع وكسر».

- «يكتبون ما يحلو لهم في محاضر التحقيق... الله وكيلك يا سيادة القاضي سقط الباب من تلقاء نفسه... كان على آخر نفس... لم يكن ينقصه غير شخص ينفخ عليه لكي يقع. مثل هذا الباب لا يحتاج لا إلى خلع ولا إلى كسر... الله وكيلك».

- «ولماذا أخبرك إيفان في ذلك الوقت ولم يخبر غيرك؟».

- «إيفان لم يخبرني... إيفان لا يثرثر».

- «كيف عرفت إذاً؟».

- «كنت معه، وسُجنًا معاً. ربما كانت السافلة هي التي بلغت عني وعنه... لقد أفشيت لها بالسر وقتها».

- «من هي السافلة؟».

- «زوجتي السابقة... سألتني من أين النقود، وأنا لحماقتي أخبرتها. كان يمكن أن أقول أي كلام فتصدقه... ولكنني لحماقتي قلت لها الحقيقة. غير أنني تعلمت درساً... فهمت فيما بعد».

- «ماذا فهمت؟».

- «إياك ثم إياك أن تثق بشخص يكنُّ لك الضغينة... خاصة إذا كانت امرأة، فالمرأة كائن حقود، لا يسامح. أي نعم؛ إنه يضحي بروحه إذا أحب، ولكنه أفعى أكثر من رقطاء إذا حقد».

- «ولماذا تكنُّ لك زوجتك الضغينة؟».

- «بسبب الأفعى أمها، إذ ادعت أن ملثمين دخلا عليها ليلاً

وسلبا ثروتها... هه! لو تدري يا سيدي القاضي عن أي ثروة تتحدث! قروش... أربعة آلاف روبل وسيادتكم تعرفون قيمة الروبل... هذه الأربعة آلاف لا تساوي نكلة... وخمسة وخمسون دولاراً وواحد وعشرون يورو وعشرة جنيهات إسترلينية ومئة مارك ألماني... هذه الغبية، فقدت الماركات قيمتها وهي تحتفظ بمئة مارك... ألم يكن من الأفضل لو أنها أعطتها لابنتها عندما كان لها قيمة؟ أصدقني القول يا سيادة القاضي، أليس من الأفضل أن تعطي ابنتها هذا المبلغ بدلاً من دفنه فوق الباب جاعلة منه طعاماً للفئران؟».

القاضي هنا حدق إليه ملياً ثم سأله:

- «وما علاقتك أنت بهذا السطو؟».

- «الشمطاء اتهمتني، قالت في شهادتها أنني كنت واحداً من اللصين، كيف يمكن لها أن تعرف أنني واحد منهما وهما ملثمان؟ بربك يا سيادة القاضي، ثم لنفترض أنني أنا ضعفت نفسي فأقدمت على ذلك، أيستحق الأمر التبليغ ضد صهرك؟ وهل كنت لأصرف النقود على جارتنا فيما لو كنت اللص فعلاً؟ كنت سأعلف ابنتها لو أنني فعلاً كنت السارق، ولكن حمقاء مثل حماتي عاجزة عن فهم ذلك. جلسنا أنا وكريشا ثلاث سنوات وأنا خسرت زوجتي وأولادي، دخلت السجن عندي زوجة وبيت وأسرة وخرجت منه مشرداً لا زوجة ولا بيت ولا أسرة. أهذا هو العدل يا سيدي؟ هل تستحق المبالغ التي تحدثنا عنها تحطيم أسرة؟».

- «من هو كريشا؟».

- «شاب مثل طربون الحبق، يمكن القول إنه فقس من البيضة للتو، ادعى المحقق أنه شريكي في السطو، عثروا مع المسكين على قطعة نقدية مسروقة...».

- «وما الذي جعلك تبوح لزوجتك وقد طلقتك بعد السطو على والدتها؟».

- «كنت أريد الاختباء عندها، ظننت أنها ستصون الخبز والملح. صحيح أننا تطلقنا ولكن بيننا خبز وملح وولدان اثنان. أأذهب إلى الغريب وأترك من هم أهلي عملياً؟».

- «تختبئ ممن؟».

- «من الشرطة، وممن يمكن أن يختبئ الرجل في بلادنا سوى من الشرطة؟».

- «ولماذا كانت الشرطة تلاحقك؟».

- «كنت قد احتسيت قرابة نصف زجاجة من الفودكا في الحديقة أنا والأحمق شورا، وخرجنا من هناك لنكمل عند شورا. فشاهد هذا الأحمق سيارة فيها مفاتيح فقرر المعتوه أن يسرقها، ولكن، لا ليس شورا المعتوه، بل ذلك الذي ترك السيارة مفتوحة. بربك يا سيدي القاضي، هل يترك أحد في هذا الزمن سيارة مفتوحة؟».

- «ماذا حصل بعد ذلك؟».

- «نصحته لا داعي لذلك يا شورا، إن ما تنوي فعله جريمة سرقة يا شورا، ولكنني كنت كمن يحدث جداراً، وأكاد أجزم أنه ليس هناك في العالم شخص أعند من شورا».

- «ولماذا لاحقتك الشرطة إذا كان شورا هو اللص؟».

- «شورا المعتوه لا يتقن قيادة السيارة، لذلك، وبعد إلحاح من هذا الأحمق، جلست أنا في مقعد السائق. وإذ بصاحب السيارة يركض من مكان ما ويصيح ورجال الشرطة ينبثقون من الأرض ويركضون ناحيتي. المعتوه شورا لم يكن قد صعد إلى السيارة بعد، ولذلك انصرف دون أن يمسه أحد بسوء. تركوا اللص الحقيقي وأخذوا يركضون خلف الرجل البريء، فلم أجد مكاناً أفضل من المكان الذي كان يوماً ما شقتي، كنت أظن أن لوسا قد نسيت حقدها بعد هذه السنين ولكن لا... فقد سكبت لي الحقيرة الفودكا لكي أطمئن وقامت بإبلاغ الشرطة. بربك يا سيدي القاضي، هل هذا تصرف أخلاقي مع والد أولادها وزوجها الذي قاسمها رغيف خبزه عندما كانت لا تملك...».

- «اخرس!».

قال القاضي وقد فقد صبره ثم صرخ بأعلى صوته:

- «اخرس!».

ثم أشار للشرطي:

- «اطرد هذا الحيوان خارج القاعة!».

أمسك الشرطي بذراع بانتيلي الذي سحبه برفق قائلاً:

- «لا داعي لطردي يا سيدي، سأخرج بشكل طوعي».

وقبل أن يتجاوز بانتيلي الباب صاح به القاضي:

- «اسمع يا بانتيلي...».

استدار بانتيلي نحو القاضي فتابع هذا:

- «لن أقفل هذه القضية قبل أن أزجك مع المتهم بأقصى عقوبة أستطيع إليها سبيلاً، وإلا سأقدم استقالتي من سلك القضاء».

- «خسارة يا سيدي، ستفقد العدالة عموداً من أعمدتها».

قال بانتيلي، ثم خرج وأغلق باب القاعة خلفه، بينما ضرب القاضي بمطرقته الخشبية على الطاولة وقال:

- «رفعت الجلسة».

وغادر القاعة من الباب الداخلي متعباً وملامح وجهه مضمخة بالغضب.

خيانة عظمى

منذ سبعة أو ثمانية أعوام تقريباً، وكنت أعمل مترجماً في إحدى شركات الترجمة، تم تكليفي بالذهاب للترجمة في لقاء سيجري في وزارة الثقافة. في الشركة لم يخبروني من هي الجهات التي ستكون في اللقاء، وهذا ما كنت معتاداً عليه، وهو لم يكن يهمني أصلاً.

توجهت إلى المكان المحدد فوجدت هناك وفداً ثقافياً عربياً، من بين أعضائه كاتب قال لي ونحن نتعارف قبل بدء اللقاء إنه مؤلف لـ 345 كتاباً.

- «ايفففففف... 345 كتاب؟!».

قلت في نفسي واستغربت كيف أني لم أسمع بهذا الكاتب، فلو أنه كتب خمسين كتاباً فقط لعذرت نفسي، ولكن الحديث يدور

عن 345 كتاباً. في نهاية الجلسة أهداني أحد كتبه الذي يبدو أنه أحبها إليه، وفي البيت بدأت بقراءة قصصه ولم أتمكن من العثور على قصة واحدة في أي من قصصه، فكلها سرديات نثرية على شاكلة مواضيع التعبير في المدارس الابتدائية، وبعضها بسبب كم السخافة الأدبية الموجود فيها مثير للضحك؛ فمن بين العناوين مثلاً قصة عنوانها، وبدون مبالغة "القطاع العام"! ظننت في البداية وأنا أقرأ الفهرس قبل أن أبدأ القراءة إنها ربما قصة ساخرة، حتى أن ابتسامة ارتسمت على وجهي، فهو لا يصلح لأن يكون عنواناً سوى لقصة ساخرة. ولشدة فضولي، فقد بدأت بقراءة المجموعة من هذه القصة التي كانت في نهاية الكتاب تقريباً، لأكتشف أن الكاتب كلف يركب باصاً من باصات شركة "الكرنك" وهي تابعة للقطاع العام على ما يبدو، وقام هذا الباص المريح الذي يقدمون فيه السكاكر كنوع من الضيافة للمسافرين، كما تؤكد القصة، قام بتجاوز باص الهوب هوب (القطاع الخاص)، وكل القصة هي تعبير عن فرحة الكاتب أو بطل القصة بتفوق باص الكرنك ممثلاً للقطاع العام، على باص الهوب هوب ممثلاً للقطاع الخاص. ويختم القصة على لسان البطل بضرورة دعم القطاع العام، ويصف مشهداً لإقبال المواطنين على القطاع العام، أي "الكرنك"، يجعل فيه المواطنين يقفون صفاً طويلاً على شباك التذاكر في الكرنك، بينما باص الهوب هوب يقف ذليلاً لا يقترب منه أحد. ولم يكن

ينقص لاكتمال الفرح سوى أن تقوم باصات الكرنك في نهاية القصة بإطلاق الزغاريد تعبيراً عن فرحتها بالفوز! ولكن ما أثار استغرابي أنه جعل المواطنين يقفون صفاً طويلاً في الطابور، وفكرت لماذا لم يكثر عدد الباصات بدلاً من تطويل الطابور؟ المهم أنني بعد أن ضغطت على نفسي تمكنت من قراءة جميع القصص بين قوسين، وفي اليوم التالي سألني إن كنت قد قرأت، فجاملته وقلت:

- «يعطيك العافية... حلوين، ولكن لدي سؤال؟».

فرحب وطلب مني أن اطرح السؤال، فقلت له عن التساؤل الذي برز لدي بخصوص الكرنك:

- «لاحظت أن الطابور الذي يقف فيه المواطنون طويل جداً؛ لماذا لم تجعل عدد الباصات أكبر بدلاً من جعل الطابور أطول؟ ففي نهاية المطاف أنت تكتب قصة، أي أنك لا تدفع ثمن الباصات من جيبك».

فضحك وقال:

- «ملاحظة ذكية، سأقوم بالتعديل في الطبعة الثالثة».

وهنا انتبهت أنا إلى أن الكتاب الذي بين يديَّ هو الطبعة الثانية، فأصبت بصدمة خفيفة في داخلي منعت ملامحي من التعبير عنها.

- «إذاً أعجبك الكتاب؟».

قال مستنتجاً، فأجبته مجاملاً:

- «الله يعطيك العافية».

فمن غير المعقول بأن ترمي الحقيقة في وجهه على شكل «دج»، وهو في نهاية المطاف ضيفنا. أما هو فارتسمت على وجهه ابتسامة ارتياح وقال بثقة بالنفس:

- «معناها ترجمته إلى الروسية عليك».

فقلت له أيضاً مجاملاً بكلمة ضبابية:

- «إنشالله».

وهنا بدأت المرحلة التي لا يمكن أن تنتهي بغير ما انتهت عليه؛ فقد طلب مني وبدون أية مقدمات أن أجد له دار نشر تتبنى كتابه، ووعدني بقيمة خمسة بالمئة من التسويق. ولا أدري لماذا أصر على العشرة آلاف نسخة. فاعتذرت منه وأوضحت له أن لدي مجموعة قصصية كتبتها بالروسية وهي جاهزة منذ أكثر من عشر سنوات وحتى الآن لم أعثر على دار نشر تتبناها، فتفهَّم الوضع واختفى عدة دقائق ليعود بعد قليل ومعه شخص عرفني إليه هو مدير لإحدى دور النشر، وقد أبدى استعداده لنشر المجموعة، هو أيضاً على الأغلب يتعامل مع الموضوع كخطوة من ضمن العلاقات العامة. أما أنا فاعتذرت متذرعاً بضيق الوقت، وعندما وعدني من باب الإغراء بكتاب شكر من اتحاد الكتاب، لم أتمكن من الحفاظ على توازني، فقلت له بصراحة:

- «أستاذ فلان... صدقني لم أكن أريد أن أصدمك بحقيقة ما أفكر فيه...».

هنا هز رأسه مستعجلا بقية الكلام، فأردفت:

- «الحقيقة أن ما قرأته في مجموعتك لا ينتمي إلى جنس القصة القصيرة».

لم أتمكن من قول ما أفكر فيه بشكل كامل، واكتفيت بتلك الكلمات. أما هو فقال معترضاً بما معناه إنه لا يوجد اتفاق بين النقاد على ماهية القصة القصيرة، وإن هذا يبقى رأيي الشخصي، ويبقى الرأي الأخير للقراء. فاكتفيت بالصمت معتبراً أن هذا يكفي لإنهاء الموضوع، ولكنه تابع طالباً من مدير دار النشر أن يتفق معي على التفاصيل، والتفاصيل طبعا ليست مادية، وإنما تتعلق بزمن الإصدار وغير ذلك، أما أنا فقد تجاهل كل ما قلته وتابع حديثه معي بنبرة أستاذ معتبراً أنني سفير بلدي غير المنصب هنا، وأن عليَّ تعريف هذا الشعب بثقافتنا، وغير ذلك من الكلام الرنان. أزعجتني هذه النبرة وهذه الوقاحة، فلم أجد بداً من رميه بالحقيقة كاملة، فقلت له:

- «أستاذ فلان... صدقني؛ إن ترجمة كتابك إلى لغة أجنبية يعتبر خيانة عظمى لن تقدم عليها إلا جهة تضع نصب عينيها الإساءة إلى شعبنا».

وهنا ثارت حفيظته وذكرني بكتبه الـ 345 وذهب ليتحدث

مع مترجم روسي، وكان المترجم يريد إن يقول له شيئاً في أثناء ذلك، ولكنه لم يكن يترك له الفرصة. وبعد أن أنهى حديثه سمعت المترجم يقول له بنوع من الخجل:

- «أفواً أنا لا أفخم الآمية... هل يمكنك أن تتخدس الفسخى؟».

قصيدة تربوية

«السافل»

لم يكن الأستاذ ديمتري بافلوف مدرساً فقط للمجموعة 113 من طلاب السنة الأولى في قسم اللغة الإسبانية، بل كان كذلك مشرفاً على هذه المجموعة، وهذا أمر ليس جديداً على ديمتري، فهو يعمل هنا منذ عشرين عاماً. ولم يختلف هذا العام عن بقية الأعوام، ولم تختلف هذه المجموعة عن بقية المجموعات التي مرت عليه سوى في أمر واحد فقط، هو أن تانيا، إحدى طالبات المجموعة، تعاني من إعاقة في النطق والبصر ترك بدوره أثراً في سلوكها الذي تبدو العقد واضحة فيه. وهذا أيضاً كان أمراً طبيعياً، فتانيا ليست الطالبة الأولى التي تمر عليه من هذا النوع؛ لقد كان

بين طلابه وطالباته في السنين السابقة أكثر من ثلاثة أشخاص يعانون من إعاقة ما. ولكن الأمر المختلف في هذا العام هو وجود فانيا، وهو طالب في المجموعة نفسها يمكن وصفه باختصار بأنه قليل التربية، فقد كان فانيا هذا يستغل كل مناسبة لكي يسخر من تانيا التي كانت بكل بساطة عاجزة عن الدفاع عن نفسها، وكان هذا يزيد من عقدها.

لاحظ ديمتري ذلك وقرر أن عليه كرجل و كمربٍّ وكمشرف على هذه المجموعة أن يدافع عن تانيا، ولكنه لم يعرف الطريقة الملائمة لذلك؛ فإذا ما وبخ فانيا علناً سيجعل تانيا محط أنظار الجميع ويزيد عقدها عقدة، وربما يجعل ذلك فانيا يشعر بالحقد على تانيا فينتقم منها في أثناء غياب ديمتري. وإذا أخذه جانباً وطلب منه أن يكف عن مضايقة تانيا فربما يجد فانيا ذلك مناسبة لكي يتلاعب بالأستاذ، فهو من ذلك النمط من الطلاب الذين يحاولون إثبات شخصياتهم عبر الشغب في الصف ومحاولة تحدي المعلم. وديمتري الذي خلع أسنانه في هذه المهنة، يعرف ذلك جيداً، ولذلك عدل عن هذه الفكرة وقرر إيجاد طريقة ربما تكون ذات جدوى. وسرعان ما تبادرت قصيدة بافلوف التربوية إلى ذهنه، فقرر أن يؤثر في فانيا عن طريق التلميح الأدبي.

وهكذا كتب ديمتري قصة تشبه أحداثها ما يجري بين فانيا وتانيا، وقد جعل ديمتري من بطل تلك القصة شخصاً سافلاً يجعل

كل من يقرأ عنه يشعر ناحيته بالاحتقار والكراهية. أعاد ديمتري قراءة القصة القصيرة تلك عدة مرات، وفي كل مرة كان يعدلها، وكانت دهشته كبيرة جداً عندما اكتشف أن في داخله كاتباً لم يكن يعلم به، فقد أعجبته القصة جداً لدرجة أنه فكر في إرسالها إلى إحدى الصحف لنشرها، ولكنه تكاسل بسبب انشغاله الكبير.

في اليوم التالي أعطى القصة لفانيا لكي يترجمها من اللغة الروسية إلى اللغة الإسبانية على أساس أنها وظيفة منزلية، ثم أخذ ينتظر النتائج، وبالفعل فإن فانيا على ما يبدو فهم المضمون، أو على الأقل رأى في بطل القصة شخصاً يشبهه فتوقف عن مضايقة تانيا، وكانت فرحة ديمتري كبيرة جدا للتأثير السحري الذي تركته القصة. ولكن هذا الفرح لم يستمر طويلاً لأن فانيا كان سافلاً، والعادات السيئة لديه كثيرة، فقد تبين للأستاذ بعد فترة أن لودا، وهي طالبة أخرى في تلك المجموعة، تعاني من الاكتئاب ولا تركز في أثناء الدرس وتعجز عن الإجابة على أبسط الأسئلة بعد أن كانت أفضل طالبة في المجموعة، وبطريقته الخاصة قام ديمتري بالتحري عن الموضوع، فتبين له أن هذا السافل فانيا أوقعها في حبه وأخذ يتلاعب بمشاعرها بشكل فج، واكتشف في نفسية فانيا جانباً سادياً هو الذي يجعله يفعل ذلك مع لودا. وفي هذه المرة لم يفكر ديمتري طويلاً، وبعد أن نامت زوجته وابنه جلس إلى الطاولة وتناول القلم وتمكن حتى الصباح من كتابة قصة جديدة

تحتوي على موضوع يشبه قصة لودا وفانيا، وقد تركت هذه القصة ارتياحاً كبيراً في نفس ديمتري. لقد كانت قصة رائعة قرأها ثلاث مرات كما لو أنه يقرأها لأول مرة، وقال لنفسه: «بدأت الحرفية تظهر في ما أكتب».

وفي اليوم التالي أعطى القصة الجديدة لفانيا لكي يترجمها إلى الإسبانية، وأخذ ينتظر النتيجة من جديد. ولم يطل ذلك كثيراً، فبعد العطلة راقب ديمتري كلاً من لودا وفانيا، واكتشف الفرح الذي ظهر على وجه لودا. وفي الفرصة شاهد لودا وفانيا في الممر، ولاحظ الاحترام البالغ الذي يتحدث فيه فانيا معها، فأدرك أن القصة أخذت مفعولها وارتاحت نفسه لهذه النتيجة الرائعة. ولكن فانيا لم يتركه في ذلك الشعور طويلاً، فسرعان ما اكتشف ديمتري سيرغيفيتش ناقصة جديدة في سلوك هذا السافل الذي اسمه فانيا، فتابع قصيدته التربوية بقصة قصيرة جديدة كانت أروع وأكثر إتقاناً من القصتين السابقتين، ولم يكن تأثيرها أقل منهما؛ فسرعان ما أقلع فانيا عن تلك الناقصة التي كانت موضوع القصة، فاكتشف ديمتري لديه ناقصة أخرى ليست بأقل سوءاً من نواقصه السابقة، وكتب له قصة جديدة لم يستطع إلا أن يقرأها لزوجته التي لم تصدق أنه هو الذي كتبها، واتهمته بأنه سرقها من الأدب الإسباني. وبقدر ما أزعجه موقف زوجته هذا، بقدر ما أفرحه، فذلك الاتهام الباطل يدل على أن القصة رائعة بالفعل، ويوماً بعد

يوم كان ديمتري بافلوف يكتشف عيوب فانيا ويعالجها بالقصص إلى أن وصل إلى مرحلة أصبح ينظر فيها إلى ديستويفسكي وتشيخوف وبولغاغوف وغيرهم كزملاء، وبعد أن كان يكتفي بالشعور بالدهشة عند قراءة أي منهم، أخذ ينظر إليهم بعين النقد، ويفكر: «لو أنني أنا الذي كتب الأبله لفعلت ذلك بطريقة أخرى. يبدو أن ثقافة ديستويفسكي كانت محدودة بعض الشيء وهذا ما أعاقه على ما يبدو».

تابع ديمتري تلك المعركة الأدبية مع فانيا كل العام تقريباً، وهو وإن عجز عن تخليصه من كل العيوب التي كانت فيه، إلا أنه خلصه من معظمها.

ولكنه في الصيف، في أثناء العطلة السنوية، اكتشف السفالة الحقيقية لفانيا. لم يكن يعتقد أنه يمكن أن يكون هناك شخصي سافل إلى هذه الدرجة، ولكن فانيا أقنعه بذلك.

كان بيت ديمتري قريباً من معرض المنتجات الوطنية، وكان معرض الكتاب في أحد الهنغارات هناك، وكانت لدى ديمتري عادة التجول في ممرات معرض الكتاب كل يوم تقريباً، على الرغم من أنه نادراً ما كان يشتري كتاباً من هناك. وقد لفت نظره كتاب على غلافه الأول صورة طالبه فانيا بألوان زاهية، وعلى شفتيه ابتسامة وسيمة صنعت خصوصاً لهذا الغلاف. ظن ديمتري سيرغيفتش أن ذلك الشخص ربما يشبه فانيا، ولكنه عندما تناول

الكتاب وقرأ اسم المؤلف واسم عائلته أدرك بأن هذا هو بالتحديد طالبه فانيا وليس أي شخص آخر.

شعر في البداية بالفرح لأنه اكتشف أن فانيا يؤلف الكتب، لا بل شعر بالفخر لأنه يعرف ويدرس هذه العبقرية الشابة، ولكنه عندما فتح الكتاب كاد يصاب بالإغماء، فقد اكتشف أن قصص الكتاب جميعها، هي تلك القصص التي كان ديمتري سيرغيفتش يكتبها لتربية فانيا.

وهو وإن كان قد تمالك أعصابه ولم يغمَ عليه عندما اكتشف ذلك، إلا أنه لم يستطع ذلك عندما فاجأته زوجته بأن القصص التي كان يقرؤها لها مدعياً أنها قصصه هي لكاتب شاب اسمه فانيا، وأبرزت له الكتاب لتثبت له ذلك، وعندها فقد الوعي.

هدايا

كما كانت المدينة الكبيرة تضيق بالأحياء، فإنها كذلك كانت تضيق بالأموات. ولئن كانت مشكلة الحي محلولة بشكل من الأشكال، حيث يستطيع أن ينام في الشارع، أو في الحديقة، أو أن يرتكب جريمة وينام في السجن، فإن مشكلة الميت ليست كذلك أبداً؛ فهو لا يستطيع النوم في الشارع ولا في الحديقة، هو يحتاج إلى قبر يستره إلى أن تتحلل عظامه.

هذه المشكلة لم تكن تخطر في بال العجوز تاتيانا غريغوريفنا التي تعيش في الشقة رقم 27 من البناء الثامن في شارع الجمهورية، فقد كانت الغرفة الوحيدة التي تتكون منها الشقة تتسع بأسرتها الثلاث لها ولابنتيها العانستين (ناستيا) و(لودميلا)، وكن سعيدات لدرجة لم يخطر في بالهن أن إحداهن ربما تموت يوماً

ما. هذه المشكلة لم تخطر في بال العجوز ولن تخطر في بالها أبداً، فقد توفيت تاتيانا غريغوريفنا صباح الخميس في الرابع عشر من حزيران، وشكلت لناستيا ولودميلا مشكلة كبيرة لم تكن في الحسبان، فقد بحثن في جميع مقابر المدينة فلم يعثرن على قبر واحد خال لدفن والدتهما العجوز التي يلتف بعض من العمات والخالات حول جثمانها في الشقة. كادت الفتاتان تشعران باليأس، وجلست لودميلا على حافة السور وأخفت رأسها بين راحتيها بعد أن أجبرها العجز على أن تنتحب، بينما أخذت ناستيا تهدئ من روعها، وهذا ما استدعى شفقة موظف في المقبرة كان يتابع ما يجري، فاقترب منهما وأخبرهما بأن البلدية قد افتتحت مقبرة جديدة خارج المدينة أطلق عليها اسم «المقبرة الغربية»، وقبل أن يكمل الموظف كلامه كانت ناستيا قد أوقفت سيارة تكسي سرعان ما صعدتا إليها وتوجهتا إلى المقبرة الغربية.

وعلى الرغم من حزنهما على العجوز، فقد تسرب إلى نفس كل منهما شعور بالفرح عندما كانتا تتنقلان في أرض المقبرة شبه الخاوية لانتقاء المساحة التي ستشتريان فيها القبر، وبعد أن حددتا المكان توجهتا برفقة مدير المقبرة إلى مكتبه لإبرام العقد، وعند دفع الثمن قامت الكبرى بتقديم المبلغ للموظف، ثم قامت بعدِّ ما تبقى لديها في المحفظة وقدمت قسماً منه للموظف، الذي لم يفهم ما تريده، فقالت موضحة:

- «أريد قبرين آخرين».

نظرت إليها الصغرى مستغربة:

- «لمن؟».

- «لي ولك... بهذا الشكل لن أعذبك ولن تعذبيني».

- «نعم... صحيح».

قالت الصغيرة وقد بعثت الفكرة شيئاً من الرهبة في نفسها.

خرجت الفتاتان من مكتب الدفن في المقبرة بعد ان اتفقتا أيضاً على حفر القبر للعجوز وعلى بقية الطقوس المتعلقة بذلك والتي يقوم بها عمال المقبرة.

وقفتا على المحطة في انتظار الباص الذي سيقلهما إلى المدينة، ولسبب ما أخرجت ناستيا محفظتها وحسبت ما فيها من النقود ثم طلبت من أختها الكبرى:

- «أعطني كل ما تبقى لديك».

- «لماذا؟».

- «تعرفين فيما بعد...».

أعطتها لودميلا كل ما لديها، فتوجهت ناستيا مرة أخرى إلى مكتب مدير المقبرة، وبعد فترة عادت وكان الباص على وشك الانطلاق، ولودميلا تقف في بابه مانعة إياه من إغلاق الباب، صعدت ناستيا ثم جلستا في المقعد وانطلق الباص.

في اليوم التالي تم دفن العجوز في المقبرة الغربية، وفي المساء عندما اجتمع الأقارب في شقة الفتاتين من أجل مواساتهما وتذكر محاسن تاتيانا غريغوريفنا المتوفاة، قامت ناستيا بفتح حقيبتها وقالت لهم:

- «عندي مفاجأة لكم».

ثم قدمت لكل من خالتها وعمتيها أوراق الطابو للقبور التي اشترتها لهم، وعندما سألوها عن الثمن، ابتسمت الفتاة ابتسامة صاحب البيت الذي يبستم لضيوفه وقالت:

- «هدية... مني ومن لودميلا... على روح أمي».

ممدوح حمادة

كاتب سوري مقيم في بيلاروس منذ العام 1984، حيث درس فيها الصحافة. عمل مدرِّساً في إحدى جامعاتها ما يقارب العشر سنوات، ثم درس الإخراج السينمائي في أكاديمية الفنون فيها.

يكتب السيناريو التلفزيوني منذ العام 1995. له الكثير من الأعمال الساخرة (منها: بطل من هذا الزمان، بقعة ضوء، ضيعة ضايعة، الخربة، ضبوا الشناتي) وعدَّة أعمال موجَّهة إلى الأطفال.

يرسم الكاريكاتير بشكل متقطِّع، نشر العديد من رسومه في الصحف البيلاروسية، وشارك في معارض دولية مختلفة. نشر العديد من قصصه في الصحف العربية والبيلاروسية. وترجم عدَّة مجموعات قصصية.

صدر له:

1. فنُّ الكاريكاتير من جدران الكهوف إلى أعمدة الصحافة، 1999.

2. فنُّ الكاريكاتير في الصحافة الدورية، 1999.

3. صانع الفراء، مسرحية للأطفال، 1999.

4. المحطَّة الأخيرة، رواية، 1999.

5. جلَّنار، رواية، 2001.

6. أمُّ الطنافس، مجموعة قصصية، 2014.

7. دفتر الأباطرة، مجموعة قصصية، 2016.

8. دفتر الحرب، مجموعة قصصية، 2016.

9. دفتر القرية، مجموعة قصصية، 2017.

إصدارات دار ممدوح عدوان للنشر والتوزيع



حياة المغترب رحلة من الألم والسعادة، والضياع والاكتشاف، والنجاح والخيبة. هي لوحة تتصارعها الألوان المتناقضة الشديدة القتامة والشديدة السطوع. حياة المغترب رحلة تكون نهايتها بحسب المخطط العودة إلى حضن الأم، الأم التي حملته وسهرت عليه طفلاً، والأم الوطن الذي يحتوي على كل ذكرياته السابقة، ولكنها غالباً ما تنتهي بنهاية المغترب قبل انتهاء الرحلة أو بنهاية الأم. هذا الكتاب يقدم قصصاً لحياة المغترب تكاد تكون متطابقة مع الواقع، وتحمل في طياتها كل تلك الانفعالات التي ذكرناها في البداية، وفيها جنوح نحو تقديم حالة المغترب دون إضفاء مسحة الرومانسية المعتادة، كما هي، ومن دون مبالغة أو رتوش.







